

" التوحيد بين جمال التعبير القرآني وتقسيمات علم الكلام"

"دراسة دعوية"

د. هاني سمير أمين جزيرة

المدرس بقسم الدعوة والثقافة الإسلامية.

كلية أصول الدين بالقاهرة – جامعة الأزهر



«التوحيد بين جمال التعبير القرآني وتقسيمات علم الكلام»

هاني سمير أمين جزيرة.

قسم الدعوة والثقافة الإسلامية، كلية أصول الدين، جامعة الأزهر، القاهرة.

البريد الإلكتروني: drhanysamir2000@y azhar.edu.eg

الملخص:

لا إله إلا الله هي المعبرة عن التوحيد، عقيدة الإسلام السهلة البسيطة وبقدر بساطة هذه الكلمات ووضوحها بقدر ما تُخَلِّف من تأثيرات عميقة في نفوس قائليها، إن الطفرة التي تُحدثها «لا إله إلا الله» لا تكمن في إثبات وجود الإله ولا في وحدانية لله سبحانه وتعالى، بل تتعدي هذا التأثير لتشمل الكون كله وتشمل الناس جميعًا، وقد جاءت خطة هذا البحث على النحو الآتي:

المقدمة، وفيها: أهمية البحث وأسباب اختياره، أهداف البحث.

المبحث الأول: التعرف بمصطلحات البحث (التوحيد)،

ثم المبحث الثاني: بين مصطلح التوحيد وعلم الكلام، وتحته مطالب عدة: المطلب الأول: موضوع التوحيد وعلم التوحيد (علم الكلام)، المطلب الثاني: أصولية وخصوصية مصطلح التوحيد، المطلب الثالث: الترادف الاصطلاحي بين مصطلح التوحيد وعلم الكلام.

ثم المبحث الثالث: الجدل الكلامي وأثره في العقيدة، ويشتمل على المطالب الآتية: المطلب الأول: علم الكلام وفق النسق التاريخي، المطلب الثاني: التأثير السلبي لعلم الكلام في العقيدة، المطلب الثالث: من أبرز أسباب قصور علم الكلام التقليدي، المطلب الرابع: موقف الفقهاء من علم الكلام.

ثم المبحث الرابع: جمالية التوحيد في التعبير القرآني، ويشتمل على المطالب الآتية: المطلب الأول: العقيدة كما أنزلت من عند الله وما آلت إليه، المطلب الثاني: التوحيد غاية النص القرآني، المطلب الثالث: تناول

القرآن الكريم لقضايا التوحيد، المطلب الرابع: المنهج القرآني في الدعوة إلى التوحيد.

ثم المبحث الخامس: تجليات التوحيد وانعكاساته، ويشتمل على المطالب الآتية: المطلب الأول: تجليات التوحيد في النظام المعرفي، المطلب الثاني: تجليات التوحيد في النظام السياسي، المطلب الثالث: تجليات التوحيد في النظام الاجتماعي، الأسرة والأمة، المطلب الرابع: تجليات التوحيد في سائر مناحي الحياة، المطلب الخامس: التوحيد ينفي الاستبداد، المطلب السادس: رؤية التوحيد لعالمي الغيب والشهادة

الخاتمة، وفيها أهم ما توصل إليه البحث من نتائج ومقترحات، وأهم المصادر والمراجع، وفهرست الموضوعات.

أهم النتائج: كان من أهم نتائج البحث

على الرغم من الأثر السيئ للجدل الكلامي، فإنه ينبغي ألا نقلل من شأنه؛ فهو وإن كان له خطره على العقيدة، لكنه يعبر عن عبقرية العقل المسلم في الحجاج والاستدلال.

وكان من أبرز التوصيات:

أوصي زملائي من الباحثين أن ينقبوا عن العقائد الإسلامية واحدة تلو الأخرى، ويعرضوها من خلال القرآن الكريم، وكذا تجلياتها للناس.

الكلمات المفتاحية:

التوحيد، علم الكلام، جمال، التعبير القرآني.. الفقهاء

»Unification between the beauty of Quranic expression and the divisions of theology«

.**Hani Samir Amin Island**
Department of Da'wah and Islamic Culture, Faculty of .Fundamentals of Religion, Al-Azhar University, Cairo
Email: drhanysamir2000@ azhar.edu.eg

Abstract:
There is no god but Allah is the expression of monotheism, the doctrine of Islam easy simple and as simple as the simplicity and clarity of these words as much as they leave deep effects in the souls of those who say them, the mutation caused by «There is no god but God» does not lie in proving the existence of God nor in the oneness of God Almighty, but goes beyond this effect to include the whole universe and include all people, and the plan of this research came as follows
Introduction, including: the importance of the research and the reasons for choosing it, the objectives of the .research
The first topic: Identification of search terms ,((monotheism
Then the second topic: between the term monotheism and theology, and under it several demands: the first requirement: the subject of monotheism and the science of monotheism (theology), the second requirement: the fundamentalism and specificity of the term monotheism, the third requirement: the terminological synonym between the term monotheism and theology.
Then the third topic: verbal controversy and its impact on faith, and includes the following demands: the first requirement: theology according to the historical pattern, the second requirement: the negative impact of theology on faith, the third requirement: one of the most prominent reasons for the shortcomings of traditional theology, the fourth requirement: the position of jurists on theology.

Then the fourth topic: the aesthetic of monotheism in the Qur'anic expression, and includes the following demands: The first requirement: the belief as revealed from God and what it has become, the second requirement: monotheism is the goal of the Qur'anic text, the third requirement: the Holy Qur'an deals with the issues of monotheism, the fourth requirement: the Qur'anic approach to the call for monotheism.
Then the fifth topic: the manifestations of monotheism and its repercussions, and includes the following demands: The first requirement: the manifestations of monotheism in the knowledge system, the second requirement: the manifestations of monotheism in the political system, the third requirement: the manifestations of monotheism in the social system, the family and the nation, the fourth requirement: the manifestations of monotheism in all aspects of life, the fifth requirement: monotheism negates tyranny, the sixth requirement: the vision of monotheism for the worlds of the unseen and the testimony.
The conclusion, which includes the most important findings of the research of results and proposals, the most .important sources and references, and the index of topics
The most important results: One of the most important results of the research was
Despite the bad effect of theological controversy, we should not underestimate it; although it has a danger to the faith, it expresses the genius of the Muslim mind in pilgrims and reasoning.
Among the most prominent recommendations were:
I recommend my fellow researchers to dig up Islamic beliefs one by one, and present them through the Holy .Qur'an, as well as their manifestations to people
Keywords: Monotheism, Theology, Beauty, Qur'anic expression, Fuqaha

مقدمة

لا إله إلا الله هي المعبرة عن التوحيد، عقيدة الإسلام السهلة البسيطة وبقدر بساطة هذه الكلمات ووضوحها بقدر ما تُخَلِّف من تأثيرات عميقة في نفوس قائليها، إن الطفرة التي تُحدثها «لا إله إلا الله» لا تكمن في إثبات وجود الإله ولا في وحدانية لله سبحانه وتعالى، بل تتعدي هذا التأثير لتشمل الكون كله وتشمل الناس جميعًا.

إن مظهر التوحيد في التصور الإسلامي شامل للكون والإنسان والحياة والأحياء؛ ولهذا اندفع الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين بهذا التصور الشامل والكامل يبنون نهضة علمية وثقافية وحضارية وصاروا سادة العالم في كل مناحيه- سياسيًّا واقتصاديًّا واجتماعيًّا وخلقيًّا- في أقل من ثلاثين عامًا منذ بعثة النبي صلى الله عليه وسلم، امتدت رقعة الإسلام شرقًا حتى احتوت أقطارًا من الصين، وامتدت غربًا حتى شملت أسبانيا والبرتغال وجنوب فرنسا.

هذه العقيدة التي جعلت الإسلام يضع قدمًا في الشرق وقدمًا في الغرب، والسبب في هذا أن العقيدة كانت فاعلة في قلوب الصحابة ففتحوا المدائن، كانوا فرسانًا بالنهار رهبانًا بالليل، وكانوا أجل مهابة من الملوك، ثم خبت العقيدة وضعفت آثارها أصبحت غير فاعلة في قلوب المسلمين كما كانت من قبل، والسبب في هذا أننا استعضنا عن دراسة التوحيد بوصفه عقيدة من خلال القرآن الكريم إلى دراسته من خلال علماء علم الكلام، وفي الحقيقة لقد صرف علم الكلام العقيدة عن مضمونها ومغزاها؛ فلقد تأثروا بالفلاسفة ومذاهب أصحابها وأغرقوا في تعقيدات المتكلمين التي تزيد الحائرين حيرة بل وتشكك المؤمنين بعد ثبات، فكان الاهتمام بآراء الفلاسفة وتقسيماتهم على

حساب العقيدة الصافية النقية، وبهذا خبا نور العقيدة وحُجبت فاعليتها عن قلوب الكثير من الناس، ولا يمكن أن تشرق شمس العقيدة من جديد إلا من خلال القرآن الكريم، ومن أجل هذا كان هذا البحث.

والله من وراء القصد

أهمية البحث وأسباب اختياره

تكمن أهمية البحث وأسباب اختياره في أن الرسل صلوات الله عليهم أجمعين جاؤوا وكانت أولى مهماتهم، توحيد الله تعالى، ودعوة قومهم إلى الإيمان بهذا الإله الواحد؛ ولهذا كانت أهمية هذا البحث:

- تقديم علم الكلام لعقيدة التوحيد بشكل لا يمكن معه إيمان متردد ولا تثبيت مؤمن؛ لأنها اعتمدت طرائق الفلسفة ومناهجهم المتفلسفة.

- حاجتي الماسة وحاجة أمثالي من الشباب إلى عقيدة التوحيد الفاعلة التي تملك زمام أنفسنا، وتهيمن على كل تصرفاتنا بافعل ولا تفعل، عقيدة تقود تصرفاتنا وتوجهنا وتدفعنا نحو الخير.

- القضايا الكلامية التي ليس لها وجود في واقعنا المعاصر تُدَّرس فقط في إطارها التاريخي للطلبة النابهين- طلبة الدراسات العليا-.

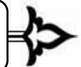
أهداف البحث

يمكننا تلخيص أهداف البحث في نقاط رئيسة أهمها:

- بيان حاجة طلبة الكليات الشرعية إلى الدفعة الإيمانية التي تحدثها عقيدة التوحيد من خلال القرآن الكريم.

- كشف غموض علم الكلام وتعقيداته لعقيدة التوحيد.

- بيان عقيدة التوحيد من خلال القرآن الكريم، وبيان بساطتها ووضوحها ومنهج القرآن في عرضها.



- بيان آثار علم الكلام في عقيدة التوحيد، وموقف الفقهاء والعلماء من علم الكلام.

خطة البحث

مقدمة

أهمية البحث وأسباب اختياره

أهداف البحث

المبحث الأول: التعرف بمصطلحات البحث (التوحيد)

المبحث الثاني: بين مصطلح التوحيد وعلم الكلام

المطلب الأول: موضوع التوحيد وعلم التوحيد (علم الكلام)

المطلب الثاني: أصولية وخصوصية مصطلح التوحيد

المطلب الثالث: الترادف الاصطلاحي بين مصطلح التوحيد وعلم الكلام

المبحث الثالث: الجدل الكلامي وأثره في العقيدة

المطلب الأول: علم الكلام وفق النسق التاريخي

المطلب الثاني: التأثير السلبي لعلم الكلام في العقيدة

المطلب الثالث: من أبرز أسباب قصور علم الكلام التقليدي

المطلب الرابع: موقف الفقهاء من علم الكلام

المبحث الرابع: جمالية التوحيد في التعبير القرآني

المطلب الأول: العقيدة كما أنزلت من عند الله وما آلت إليه

المطلب الثاني: التوحيد غاية النص القرآني

المبحث الأول: التعرف بمصطلحات البحث

المدلول اللغوي لكلمة توحيد

يقول الراغب الأصفهاني في المفردات: الوحدة الانفراد، والواحد في الحقيقة هو الشيء الذي لا جزء له البتة ثم يطلق على كل موجود حتى إنه ما من عدد إلا ويصبح أن يوصف به، فيقال عشرة واحدة ومائة واحدة وألف واحد.

فالواحد لفظ مشترك يستعمل على أوجه عدة[١]:

الأول: ما كان واحدًا في الجنس أو في النوع كقولنا (الإنسان والفرس واحد في الجنس) (وزيد وعمرو واحد في النوع).

الثاني: ما كان واحد بالاتصال إمَّا من حيث الخلقة كقول شخص واحد، وإمَّا من حيث الصناعة كقولك (حرفة واحدة).

الثالث: ما كان واحدًا لعدم نظيره، إما في الخلقة كقولك (الشَّمس واحدة) وإمَّا في دعوى الفضيلة: كقولك (فلان واحد دهره) وكقولك: (نسيج وحده).

الرابع: ما كان واحدًا لامتناع التجزيء فيه: إمَّا لصغره كالهباء، وإمَّا لصلابته كالماس.

الخامس: للمبدإ، إما لمبدإ العدد: كقولك واحد اثنين، وإما لمبدإ الخط كقولك: النُّقطة الواحدة: والوحدة في كلها عارضة.

---

[١] يُنْظَر: «المفردات في غريب القرآن» تأليف أبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى، (ص: ٨٥٧)، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، الناشر: دار القلم، الدار الشامية– دمشق بيروت، ط: الأولى ١٤١٢هـ.

وإذا وصف الله تعالى بالواحد: فمعناه هو الذي لا يصح عليه التجزيء، ولا التكثر لصعوبة هذه الوحدة: قال تعالى: **{وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ}**[1]، والوحد المنفرد.

ويوصف به غير الله، كقول الشاعر: (على مستأنس واحد) وأحد مطلقًا لا يوصف به غير الله تعالى.

ويقول ابن الأثير في (النهاية) (في أسماء الله الواحد) هو الفرد الذي لم يزل ولم يكن معه آخر[2].

قال الأزهري: الفرق بين الواحد والأحد: أَنَّ الأَحدَ بُنِي لنَفْي مَا يُذكَرُ مَعَه من العَدَد، تقول ما جاءني أحد، والواحدُ اسمٌ لمُفْتَتَح العَدَدِ، وأَحَدٌ يصلح فِي الْكَلَام فِي موضِعِ الجَحْدِ، وواحِدٌ فِي موضِعِ الإِثْبَاتِ، تَقول مَا أَتَانِي مِنْهُم أحدٌ وَجَاءَنِي مِنْهُم وَاحدٌ. وَلا يقالُ جاءَني منْهُمْ أحد[3].

---

[1] [الزمر: ٤٥].

[2] يُنْظَر: «النهاية في غريب الحديث والأثر» تأليف: مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن محمد ابن عبد الكريم الشيباني الجزري ابن الأثير، (١/٢٧)، تحقيق: طاهر أحمد الزاوى– محمود محمد الطناحي، الناشر: المكتبة العلمية– بيروت، ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م.

[3] يُنْظَر: «تهذيب اللغة» تأليف: محمد بن أحمد بن الأزهري، (٥/١٢٦)، تحقيق: محمد عوض مرعب، ط: دار إحياء التراث العربي– بيروت، ط: الأولى، ٢٠٠١م.

فالواحد منفرد بالذات في عدم المثل والنظير: والأحد المنفرد بالمعني، وَقِيلَ: الْوَاحِدُ: هُوَ الَّذِي لَا يَتَجَزَّأ، وَلَا يُثَنَّى، وَلَا يَقْبَل الانقِسام، وَلَا نَظِيرَ لَهُ وَلَا مِثْل، وَلَا يَجْمَع هذين الوصفين إلا الله تعالى[١].

ونخلص مما سبق أن مادة (وَحَدَ) تدور حول انفراد الشيء بذاته أو بصفاته أو بأفعاله وعدم وجود نظير له فيما هو واحد فيه.

التعريف الاصطلاحي

كلمة التوحيد قد تطلق ويراد بها المعني المصدري، وقد تطلق ويراد بها الفن المدون بهذا الاسم.

أما الثاني، علم التوحيد أوعلم الكلام، فتعريفه عند المتكلمين أنه: علم يقتدر به على إثبات العقائد الدينية مكتسبة من أدلتها اليقينية[٢].

وأما التوحيد بالمعنى المصدري، فهو كما قال الشيخ محمد عبده: اعتقاد أن الله واحد لا شريك له[٣].

---

(١) يُنْظَر: «المرجع السابق» نفسه.

(٢) يُنْظَر: «لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرة المضية في عقد الفرقة المرضية» تأليف: أبي العون محمد بن أحمد بن سالم السفاريني الحنبلي، (٤/١)، ط: مؤسسة الخافقين ومكتبتها– دمشق، ط: الثانية– ١٤٠٢هـ – ١٩٨٢م.

(٣) يُنْظَر: «رسالة التوحيد» الشيخ محمد عبده، (ص: ١٧)، تقديم أ د: محمد عمارة، ط: دار الشروق –بيروت، ط الأولى ١٤١٤هـ– ١٩٩٤م.

المبحث الثاني: بين مصطلح التوحيد وعلم الكلام

المطلب الأول: موضوع التوحيد وعلم التوحيد (علم الكلام)

المطلب الثاني: أصولية وخصوصية مصطلح التوحيد

المطلب الثالث: الترادف الاصطلاحي بين مصطلح التوحيد وعلم الكلام.

المطلب الأول: موضوع التوحيد وعلم التوحيد (علم الكلام):

من المناسب أن نميز بين موضوع التوحيد، وعلم التوحيد (علم الكلام)؛ فموضوع التوحيد هو جوهر معنى الإسلام، ومعنى الإيمان، ومعنى الإحسان، فإنما يكون دخول الإسلام من باب الشهادة «لا إله إلا الله محمد رسول الله»، وإنما يكون أول ركن في الإيمان التصديق المتيقن بالله سبحانه، والإحسان أن يستشعر الإنسان معية الله في كل أمر، وقد جمع حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه هذا، حيث قال: بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه، وقال: يا محمد أخبرني عن الإسلام، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا»، قال: صدقت، قال: فعجبنا له يسأله، ويصدقه، قال: فأخبرني عن الإيمان، قال: «أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره»، قال: صدقت، قال: فأخبرني عن الإحسان، قال: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»، قال: فأخبرني عن الساعة، قال: «ما المسئول عنها بأعلم من السائل» قال: فأخبرني عن أمارتها، قال: «أن تلد الأمة ربتها، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان»، قال: ثم انطلق فلبثت



مليا، ثم قال لي: «يا عمر أتدري من السائل؟» قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم»[١].

فموضوع التوحيد إيمان، وعمل بمقتضى الإيمان، فهو بذلك عقيدة يعتنقها المسلم، وشريعة تنظم حياته، وهو تصور ورؤية للوجود، وحياة واقعية على هدي هذا التصور[٢].

أما علم الكلام: فهو علم يقتدر معه على إثبات العقائد الدينية بايراد الحجج ودفع الشُّبه، ومعنى إثبات العقائد تحصيلها، واكتسابها بحيث يحصل الترقي من التقليد إلى التحقيق، أو إثباتها على الآخر بحيث يتمكن من إلزام المعاندين، أو إتقانها وإحكامها، بحيث لا تزلزلها شبه المبطلين[٣].

من أسمائه: علم التوحيد[٤]، وعلم الكلام[٥]، وعلم أصول الدين[١]، والفقه الأكبر[٢].... إلى آخر التسميات التي أطلقها عليه العلماء، هو علم

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: «الطهارة»، (١/ ٣٦)، برقم: (٨).

(٢) يُنْظَر: «منظومة القيم العليا التوحيد والتزكية والعمران»، فتحي حسن ملكاوي، (ص: ٣٥)، ط: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط: الأولى ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م.

(٣) يُنْظَر: «شرح المقاصد» سعد الدين التفتازاني، (ص: ٢٩)، ط: بيروت، دار الكتب العلمية، ط: الأولى- ٢٠٠١م.

(٤) سمي بعلم التوحيد؛ لأنه أشرفُ العلوم، وأجلُّها قدرًا، وأوجبُها مطلبًا؛ لأنه العلم بالله تعالى، وأسمائه، وصفاته، وحقوقه على عباده. ينظر: «نبذة في العقيدة الإسلامية» تأليف: محمد بن صالح بن محمد العثيمين، (ص: ٢٩)، ط: دار الثقة للنشر والتوزيع، مكة المكرمة، ط: الأولى، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م.

(٥) يقول سعد الدين التفتازاني في بيان أسباب تسمية علم الكلام بهذا الاسم: إن عنوان مباحثه كان قولهم: الكلام في كذا وكذا؛ ولأن مسألة الكلام كان أشهر مباحثه وأكثرها =

متخصص يدرس فيه العلماء قضايا العقيدة ويستخدمون مناهج وطرائق خاصة تتفاوت في تفصيلاتها وإجراءتها الفنية[٣].

المطلب الثاني: أصولية وخصوصية مصطلح التوحيد

من أهم خصوصيات الأمة الإسلامية أنها أمة التوحيد الذي يأخذ طابعًا شموليًّا في كل مرافق وجودها وتصوراتها، وعلى أساسه تنبني قمتها وقاعدتها.

ولقد كان أول نداء نادي به الرسول صلى الله عليه وسلم حين أمره الله تعالى بالدعوة إليه، هو توحيد الله قبل توحيد العباد، فكانت دعوته مرتكزة على قوله: "أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله"[٤] الحديث[١].

=
نزاعًا وجدالًا، ولأنه يورث قدرة على الكلام. ينظر: «شرح العقائد النسفية» للعلامه سعد الدين التفتازاني، (ص: ١٠)، تحقيق، د: أحمد حجازي السقا، ط: مكتبة الكليات الأزهرية، ط: الأولى ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م.

(١) أصول الدين: هي ما يقوم وينبني عليه الدين. والدين الإسلامي يقوم على عقيدة التوحيد. ومن هنا سمي علم التوحيد أو علم العقيدة بـ"علم أصول الدين". ينظر: « المفيد في مهمات التوحيد» د. عبد القادر بن محمد عطا صوفي، (ص: ١٣)، الناشر: دار الاعلام، ط: الأولى ١٤٢٢هـ- ١٤٢٣هـ.

(٢) سمي العلماء العقيدة بالفقه الأكبر مقارنة بفقه الفروع وهو الذي يبحث العبادات والمعاملات وغير ذلك، وأول من استخدم مصطلح "الفقه الأكبر" هو الإمام أبو حنيفة. « المفيد في مهمات التوحيد»، (ص: ١٨).

(٣) يُنْظَر: «التوحيد والتزكية والعمران»، (ص: ٣٨).

(٤) أخرجه الإمام البخاري في «صحيحه» كتاب: «الإِيمَان» بَاب: «فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ [التوبة: ٥]»، (١/ ١٤) برقم: (٢٥)، أخرجه الإمام
=

فكانت هذه الكلمة هي أصل التوحيد، والتعبير الذي لا يقبل التأويل والنسخ والتعديل، بل هو كلام محكم كل الإحكام جامع لكل ما يقتضيه التوحيد من معان ومضامين، مانع لكل شوب أو تداخل في المفاهيم، وإنما هي كلمة تحمل قوة وما بعدها من قوة في النفي، ودقة ما بعدها دقة في الاستثناء، ووضوحًا ما بعده وضوح في الإثبات؛ حيث لا ثابت إلا ما أثبتته هذه الكلمة ولا ذات تختص بصفة الألوهية إلا ذات الله سبحانه وتعالى(٢).

إذن، كانت هذه الكلمة التوحيدية القول الفصل في تحديد مستحق الألوهية، وحولها تكونت العلوم والمعارف العقائدية بشتى أنواعها وشُعبها، وتأسست على إثرها مذاهب ومدارس عقلية وروحية وسلوكية؛ كل مذهب قد اغترف منها بحسب استعداده وطاقاته الفكرية والروحية بحسب بُعد نظره وعُمق غَوصه وقُدرته على استخلاص المعاني.

=

مسلم في «صحيحه» كتاب: «الإيمَان» بَاب: «الْأَمْر بِقِتَالِ النَّاسِ حَتَّى يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ»، (١ / ٥١) برقم: (٢٠).

(١)عَنِ ابْنِ عُمَرَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّ الإِسْلاَمِ، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ». وأل في قوله: (الناس) للعهد الذهني، والمراد بهم مشركو مكة المحاربون بدليل رواية النسائي: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ... إلخ»، فنصت رواية النسائي على المشركين. أخرجه الإمام النسائي في «سننه»، كِتَابُ: «تَحْرِيمِ الدَّمِ»، (٧/ ٧٥) برقم: (٣٩٦٦).

(٢) يُنْظَر: «التجديد في دراسة علم التوحيد»، محمد بنيعيش، (صـ:١١)، ط: دار الكتب العلمية– بيروت، لبنان، ط: الأولى– ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م.

وهكذا أخذت المذاهب سواء أكانت مذاهب فردية أو جماعية ذات طابع مدرسي تفرز أفكارًا وتفسيرات لمعاني الكلمة ومستلزماتها، منها ذات الطابع التقريري المحض والتعبير الذوقي المنبعث عن الإيمان المبدئي بالعقيدة المعبر عنها، ومنها ذات الطابع الاستدلالي والأسلوب البرهاني ذي الطبيعة البحثية، يأخذ مرة صورة المعرفة من أجل المعرفة ومرة أخرى صورة جدلية هدفها الإقناع واتخاذ موقف الدحض والدفاع.

وأمام هذا التنوع المعرفي واتجاهاته المنهجية، وأمام هذا التركيز الرئيس على مدلول الكلمة ومضامينها، أخذ يتكون ما اصطلح عليه بعلم التوحيد بصفته -أي المصطلح- الذي يُعَدُّ جامعًا لكل المذاهب الفكرية المتفرعة للكلمة ومستلزماتها، وبصفته النعت الأساسي لعقيدة المسلمين ورأس علومهم؛ بحيث إن المصطلحات الأخرى التى سمي بها علم التوحيد لا تعطيه الخصوصية الدقيقة والضامنة كما يعطيه له مصطلح التوحيد، وذلك كعلم الكلام وعلم العقائد والنظر والاستدلال والفقه الأكبر وأصول الدين... إلخ[١].

وفي ضوء ما سبق وبناء عليه ثمة اشتراك واختصاص بين التوحيد كمصطلح من ناحية وعلم التوحيد من ناحية أخرى؛ فالأول التوحيد الذى أتى به جميع الأنبياء والمرسلين من لدن آدم عليه السلام إلى محمد صلى الله عليه وسلم، ومهمته نفي الشرك عن الله سبحانه وتعالى، وإثبات أنه وحده المستحق للعبادة دون سواه. أما الثاني، فكان لإثبات العقائد بصورها المختلفة (إلهيات – نبوات – سمعيات)، وكذلك لرد شبهات الخصوم

---

[١] يُنْظَر: «التجديد في دراسة علم التوحيد»، (صـ:١١).

والمعاندين والدفاع عن العقيدة الإسلامية، وقد نشأ لظروف اجتماعية وتاريخية وضرورة وقتية، لكن العجب كل العجب أن ينسحب علم الكلام بكل قضاياه القديمة وتقسيماته كما هي إلى وقتنا الحاضر دون مراعاة للقضايا التي استحدثت في الواقع.

المطلب الثالث: الترادف الاصطلاحي بين مصطلح التوحيد وعلم الكلام

لربما يُجانب الصوابَ كثيرًا من العلماء والباحثين، حينما يستعملون مرادفات لعلم التوحيد تحمل إياه على قدم المساواة المعنى الشمولي والدلالات التي يقتضيها هذا المصطلح نفسه.

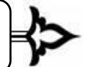
فنجد النشار مثلًا يقول "علم الكلام أو علم التوحيد أو علم أصول الدين، علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية، وهذا العلم فيما أعتقد هو النتاج الخالص للمسلمين"(١).

وبالأسلوب نفسه يتحدث أبو ريدة فيقول: "كان النظر في الدين بأحكامه وعقائده يسمى فقهًا ثم خصت الاعتقادات باسم الفقه الأكبر وخصت العمليات باسم الفقه، وسميت مباحث الاعتقاديات باسم علم التوحيد أو الصفات تسمية للبحث بأشرف أجزائه، أو علم الكلام؛ لأن أشهر مسألة قام حولها الخلاف هي مسألة كلام الله، أو لأنه يورث قدرة على الكلام في الشرعيات كالمنطق في الفلسفيات"(٢).

---

(١) يُنْظَر: «نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام»- علي سامي النشار، (١/ ٥٤)، ط: دار المعارف، ط: التاسعة- دون تاريخ.

(٢) يُنْظَر: «نشأة الفكر الفلسفي الإسلامي»- حسام الآلوسي، (ص: ٥٢)، ط: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط: الأولى- ١٩٨٠م.



وكثير هم الباحثون الذين وضعوا علم الكلام مرادفًا لعلم التوحيد دون الإشارة إلى تميز أحد المصطلحين عن الآخر بوجه من الوجوه، لكن حينما نعود إلى تعريفات المتقدمين من العلماء، فإننا نجد لديهم دقة في تحديد المصطلح وخصوصياته أكثر مما عليه المعاصرون، بل إن بعض هؤلاء المتأخرين أضافوا إلى تعريفاتهم ما لم يَقُله المتقدمون، وذلك كما نجده عند النشار في النص السابق؛ بحيث قد أضاف إلى تعريف ابن خلدون مصطلحات أريد بها توسيع دائرة التعريف والتبيين، لكن العكس هو الذي حدث؛ بحيث أفقد المصطلح الذي قصده ابن خلدون خصوصيته ودقته، ومضمون النص الخلدوني كالتالي: "علم الكلام علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذهب السلف وأهل السنة، وسر هذه العقائد التوحيد، فلنقدم هنا لطيفة في برهان عقلي يكشف لنا عن التوحيد على أقرب الطرق والمآخذ ثم نرجح إلى تحقيق علمه، وفيما ينظر ويشير إلى حدوثه في الملة، وما دعا إلى وضعه"(١).

وحينما عرض ابن خلدون للتوحيد بعد تعريف علم الكلام وخصوصياته، أخذ مسلكًا عقائديًّا ومعرفيًّا خلا من كل رائحة للجدل أو المناظرة، أو الحجاج، وإنما هو عرض معمق مقصود لذاته ومبرهن عليه بأدلة عقلية واستنتاجات علمية، تعتمد على واقع النفس الإنسانية وقدراتها الإدراكية ومستوى حدود في الاستدلال والبرهنة، وذلك من حيث تحديد مفهوم التوفيق والتوقيف، ثم يبين بعد ذلك كيف تطور النظر في التوحيد من علم مقصود

---

(١) يُنْظَر: «مقدمة ابن خلدون»- تأليف: عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، (٣/ ٩٦٦)، تحقيق: علي عبد الواحد وافي، ط: مكتبة الأسرة، ط: الثانية ٢٠٠٦م.

لذاته إلى علم ظرفي ومرحلي فرضته الوقائع والأحوال التي طرأت على منهج النظر والاستدلال كما يقول: "إلا أنه عرض بعد ذلك خلافًا في تفاصيل هذه العقائد أكثر مثارها من الآي المتشابهة، فدعا إلى الخصام والتناظر والاستدلال بالعقل زيادة إلى النقل، فحدث بذلك علم الكلام" [١].

وبالجملة فموضوع علم الكلام عند أهله إنما هو العقائد الإيمانية بعد فرضها صحيحة من الشرع؛ من حيث يمكن أن يستدل عليها بالأدلة العقلية فترفع البدع وتزول الشكوك والشبه من تلك العقائد[٢].

ورأي ابن خلدون هذا ليس إلا ملخصًا لرأي سابقيه من المتخصصين في علم الكلام أو المؤرخين له والمعارضين لبعض قضاياه كابن تيمية مثلًا، الذي يرفض بشدة اعتبار علم الكلام مرادفًا لأصول الدين بل إنه حمل على المتكلمين حملة شعواء[٣].

وفي رأيي، إن كلا طرفي قصد الأمور مستبعد في هذه المسألة؛ فلا الذين رأوا علم الكلام مرادفًا تامًّا لعلم التوحيد قد أصابوا الهدف ولا الذين حاولوا إقصاء علم الكلام عن تمثيله لعلم التوحيد كانوا موضوعيين وعلميين.

لكن بين هذين الاتجاهين في تحديد علم التوحيد- من حيث احتواؤه لمصطلح علم الكلام أو عدمه بوصفه مرادفًا تامًّا أو مخالفًا تامًّا، نجد موقفًا وسطًا موضوعيًّا يحدد وظيفة علم الكلام ودوره داخل دائرة علم التوحيد

---

(١) يُنْظَر: «المرجع السابق»،: (٣/ ٩٧٢).

(٢) يُنْظَر: «المرجع السابق»،: (٣/ ٩٧٧).

(٣) يُنْظَر: «التجديد في دراسة علم التوحيد»، (صـ: ١٤).

بمفهومه الواسع، وقد مثل هذا الموقف بصورة واضحة أبو حامد الغزالي– رحمه الله– في قوله: "فإذن علم الكلام صار من جملة الصناعات الواجبة على الكفاية حراسة لقلوب العوام عن تخيلات المبتدعة، وإنما حدث ذلك بحدوث البدعة فليعلم المتكلم حده من الدين وأن موقعه منه موقع الحارس في طريق الحج؛ فإذا تجرد الحارس للحراسة، لم يكن من جملة الحاج"[١].

وهذا الاعتبار الذي خصصه الغزالي لعلم الكلام ودور المتكلمين حذا ببعض المعاصرين إلى القول إن: "علماء الكلام أشبه بوزراء الداخلية في العصر الحاضر، مهمتهم المحافظة على الأمن العقلي الداخلي والمحافظة على النظام الداخلي للحضارة الناشئة"[٢].

فالغزالي كان أدرى بواقع مصطلح علم الكلام وأبعاده؛ ولهذا فبعدما أدرك خصوصيته وعدم مجاراته لشمولية علم التوحيد وغاياته، ألف كتابا سماه "إلجام العوم عن علم الكلام" ولو كان الغزالي يفسر علم الكلام "بعلم التوحيد" أو (التوحيد) بوصفه مرادفًا تامًّا وكامل الأركان، لما تجرأ على طرحه هذا المتمثل في حظر "علم الكلام" على فئة عريضة من المسلمين، ولو فرضنا أن "علم الكلام" مرادف لـ"علم التوحيد"، فهذا يعني أن الغزالي يمنع علم التوحيد على العامة من المسلمين، وهذا ما لم يقصده، وإنما مقصوده شيء آخر، وهو محاولته صرف العامة عن الدخول في مجادلات وشبهات ليس بمقدورهم فهم رموزها وإشاراتها، كما أنه ليس مطلوبًا شرعًا

---

[١] يُنْظَر: «إحياء علوم الدين» تأليف: أبي حامد الغزالي، (١/ ٢٢)، ط: دار المعرفة – بيروت، بدون.

[٢] يُنْظَر: «التجديد في دراسة علم التوحيد»، (صـ:١٥).

وجوب التدقيق فيها بصورة تفصيلية، وإن كان مطلوبًا معرفة أصول التوحيد بصورة جملية لتثبيت العقيدة والاستقرار على أصولها[1].

إذن، فعلم الكلام فرع لعلم التوحيد وليس مردافًا على سبيل المساواة؛ ولهذا فإن توظيفه في مباحث علم التوحيد، وإن كان مطلوبًا لتوسيع دائرة المعرفة التوحيدية من جوانبها المتكاملة، إلا أنه ينبغي أن يكون على قدر الحاجة، ولا بد أن يراعي القضايا الجديدة والحاجة المعرفية لدى المجتمع؛ فالتوحيد في الإسلام له خصوصية الترابط بين العقيدة والسلوك والنظر والعمل، ولا حاجة لنا البتة إن كان التوحيد بوصفه عقيدة في ناحية والتصور الإدراكي للعقيدة في ناحية أخرى؛ إذ الواجب أن يكون الترقي في التصور الإدراكي يسير موازيًا للترقي في السلوك والعمل الظاهري الباطني كنتيجة لهذا التصور العقدي.

---

[1] يُنْظَر: «المرجع السابق»، (صـ: ١٦).

المبحث الثالث: الجدل الكلامي وأثره في العقيدة

المطلب الأول: علم الكلام وفق النسق التاريخي

المطلب الثاني: التأثير السلبي لعلم الكلام في العقيدة

المطلب الثالث: من أبرز أسباب قصور علم الكلام التقليدي

المطلب الرابع: موقف الفقهاء من علم الكلام



مدخل

مما لاشك فيه أن علم الكلام كان له بالغ الآثر على العقيدة، ولقد تنبّه لهذا الأثر السيئ أئمة عظام، ونادوا بالإصلاح العقدي من ناحية وبالتخفف من الجدل الكلامي من ناحية أخرى، وكان من بين هؤلاء الشيخ الأستاذ الإمام محمد عبده وتلميذه جمال الدين الأفغاني والشيخ مصطفى صبري والأستاذ محمد إقبال والشيخ محمد الغزالي وغير هؤلاء كثيرون، كما تنبّه كثير من فقهائنا الأجلاء لخطر هذا الجدل ونهوا عن الخوض في لججه والغوص في أعماقه السوفسطائية التي لا يمكن أن يقال عنها إلا إنها جدل عقيم أورث الأمة بعدًا وشرودًا عن الحق، وفي وسط ظلمة الباطل يتبدد نور الحق، وفي هذا المبحث، نسلط الضوء على خطر هذا الجدل على العقيدة وموقف علمائنا الأكارم فيه.

المطلب الأول: علم الكلام وَفْق النَّسَق التاريخي

إن مما ينبغي أن نُعْنى به ويشغل الفكر الإسلامي المعاصر هو المحافظة على العقيدة الإسلامية في صورتها الأولى النقية؛ لأن هذه الصورة البسيطة للعقيدة الإسلامية تمتلك القدرة على تغيير النفس الإنسانية، وبالتالي تغيير وجه الحياة الاجتماعية، ولعل هذا ما أحدثته تلك العقيدة في تغيير وجه العالم والتاريخ في المرحلة الأولى من صدر الإسلام، في عهد الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، وخلفائه الراشدين المهديين «مرحلة التأسيس»[(١)]؛ فعلم الكلام في صورته الفلسفية الجدلية في عصر الخلافة

---

(١) يُنْظَر: «وجهة العالم الإسلامي»، لمالك بن نبي: (صـ: ٤٨)، دار الفكر سوريا، ١٩٨٦م.

العباسية لا يتصل بالواقع، ولا يُعنَى بمشكلاته، وإنما يهتم بالجدال وتبادل الآراء؛ مما أدى بدوره إلى الإخلال بالوظيفة الاجتماعية للدين الإسلامي، وإنما لا بُدَّ من فاعلية العقيدة في النفس والمجتمع.

إننا لو كنا صادقين في تجديد العقيدة الإسلامية، فإنه لا بُدَّ من مراجعة القواعد التقليدية، والنظر في المصطلحات التي سادت ردحًا من الزمن في علم الكلام التقليدي، وينبغي أن نُقَدِّم قراءة جديدة لقضايا العقيدة الإسلامية مستقاة من القرآن الكريم، وكذا الارتكان إلى عقيدة سليمة بسيطة مؤثرة وفاعلة، وهذا ما قصر علم الكلام عن تحقيقه في واقع المسلمين عبر عصوره المتطاولة، وأزمنته الماجدة.

فمن الضروري لكي نُعِيد للعقيدة الإسلامية فاعليتها لتتمكن من تغيير مجرى التاريخ الإنساني أن يتم التركيز على فهم أول هذه الأمة للعقيدة، وأداء السلف الصالح لها فكرًا وعملًا وواقعًا وسلوكًا وممارسة وتطبيقًا؛ فالطريقة المثلى للاستدلال على وجود الله، وصفاته، وما يتعلق بالغيبيات «السمعيات» لا يكون إلا بالقرآن الكريم؛ لأن المؤمن إذا استند في توحيد الله، وإثبات ما يُثبت له، ونفي ما انتفى عنه لا يكون إلا بآيات قرآنية محكمة(١).

ومما يُؤْخَذ على علم الكلام أن بعض العلماء كان يعتبره سببًا في تفرق المسلمين؛ وذلك بسبب انتشار المذاهب الكلامية التي أثارت الجدل والتأويل الذي أفضى إلى تبديع القوم لبعضهم، وتفسيقهم بل وصل إلى حد تكفير كل

---

(١) يُنْظَر: «آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي»، جمع وتقديم، د: أحمد طالب الإبراهيمي، (٣١٦/٥)، ط: دار الغرب الإسلامي، ط: الأولى، ١٩٩٧م.

طائفة لمخالفتها، وتشابهت السُّبل على المسلمين لكثرة هذه الطوائف، فحصل بذلك التفرق الذي كان له الأثر السيئ في الدين – أصوله وفروعه(١).

إن توحيد الله تعالى قد قَرَّره القرآن الكريم بأجلى بيان وأوضح برهان، وصفاته جل وعلا أن يطمح في إثباتها بأكمل مما أتى بها القرآن الكريم، وطريقة القرآن الكريم في تنزيه الباري جل وعلا أقوم طريقًا وأهدى سبيلًا، وقد جرى عليها الصحابة الكرام رضي الله عنهم، فكانوا أكمل الناس توحيدًا– بعد الأنبياء والمرسلين– مع أنهم كانوا لا يعرفون الجوهر ولا العرض، وهل يبقى زمانان؟ ولا الكم، ولا الكيف بمعانيها الفلسفية الدقيقة(٢).

إن توحيد الله لا يحتاج إلى طرق كلامية ولا مجادلات فلسفية، بل إن أصدق من يتحدث عن الله ووحدانيته وذاته وصفاته هو سبحانه وتعالى، وذلك من خلال القرآن الكريم الذي عرض التوحيد في أبهى صورة عجز عنها الفلاسفة المتقدمون والمتأخرون ببيان أفهم الخلق كلهم جاهلم ومتعلمهم، مثقفهم وعامهم، كافرهم ومؤمنهم، عبّر عن ذاته بذاته المقدسة، وتعريف الله نفسه بنفسه هو أصدق التعريفات وأجلها على الإطلاق، ولهذا كان القرآن الكريم هو أصدق تعبير وتعريف بالله سبحانه ووحدانيته وذاته.

المطلب الثاني: التأثير السلبي لعلم الكلام على العقيدة

مما يعيبه بعض المفكرين المعاصرين على **التأثير** السلبي لعلم الكلام أنه اهتم بنقل آراء الفلسفة اليونانية ونشرها وتوظيفها في أنساقهم الفلسفية،

---

(١) يُنْظَر: «آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي»، (١/١٦٦).

(٢) يُنْظَر«آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي»، (١/١٦٧).

وقد حجبت الفلسفة اليونانية- برغم أنها وَسَّعَت آفاق النظر العقلي عند مفكري الإسلام- أنظارهم عن فهم القرآن الكريم؛ فمنهج القرآن الكريم يختلف عن منهج الفلسفة اليونانية؛ فالقرآن الكريم يُعْنَى بالحس وينزع إلى الملاحظة، بخلاف الفلسفة الإغريقية التي تنحصر في الاستنباط من مقدمات جاهزة، وتبتعد عن الطبيعة المحسوسة، كما أن روح القرآن الكريم تتجلى فيها الواقعية، في حين انحازت الفلسفة اليونانية إلى التفكير النظري المجرد[١].

إن طرق المتكلمين في البرهنة على العقائد الإسلامية- أحيانًا- تعمل على إثارة الشبهات أكثر مما تدعو إلى الإقناع، والمشكلات التي فرَّقت بين الأشاعرة والماتريدية، أو بينهم وبين المعتزلة كانت مشكلات لفظية، وأدَّت هذه الخلافات إلى تفريق صفوف المسلمين، وتكفير بعض المغالين لبعضهم[٢].

إن الأولى بعلماء العقائد- اليوم- بل والأولى بالمسلمين جميعًا- متكلمين وغير متكلمين- أن يتدبروا آيات الكتاب العزيز لكي يستنبطوا منه أدلتهم بدلًا من أن يعمدوا إلى نظريات فلسفية ظنية، وخصوصًا إذا كانت نظرياتهم من الدرجة الثانية، أو الثالثة، كنظرية «الجوهر الفرد»، وكان

---

[١] يُنْظَر: «تجديد الفكر الديني في الإسلام»، لمحمد إقبال: (صـ: ١٧٧)، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، دون.

[٢] يُنْظَر: مقدمة كتاب: «مناهج الأدلة»، لابن رشد، (صـ: ٩)، تقديم: محمود سعد، ط: مكتبة الأنجلو المصرية، سنة: ١٩٦٤م.

الأحرى بهم أن يكتفوا بأدلة القرآن الكريم؛ لأنها تصلح للناس جميعًا، ولأهل الجدل أيضًا؛ وذلك لأن القرآن الكريم يتجه لجميع المستويات العقلية[١].

إن من الضروري اتباع طريقة القرآن الكريم والرسول صلى الله عليه وسلم في بيان هذه العقائد، والتدليل عليها بما يقنع العقل، ويرضي الوجدان، ويستولي على القلب مع الإفادة من العلم الحديث الذي اكتشف أسرار الكون وبديع نظامه؛ مما جعل الاعتقاد بوجود إله عالم حكيم خلق العالم، ويقوم بتدبير شؤونه ضرورة عقلية ووجدانية، وأمرًا لا بُدَّ منه، وتُسَلِّم به العقول قبل القلوب[٢].

وإنه لمن المؤسف حقًّا أن تدور خلافات علم الكلام حول مشكلات تتجاوز قدرات العقل البشري، مثل قضايا الذات والصفات، والقضاء والقدر، وأن الله وجود محض، وأنه عالم بعلم، هو عين ذاته، أو بعلم ليس هو عين ذاته، أو حي بنفي الموت عنه، أو عالم بنفي الجهل عنه، وكذا قضية صفة الكلام، وهل هو بصوت وحرف، وغير ذلك، وكذا الموضوعات ذات أبعاد سياسية، مثل الإمامة[٣].

وقد انتقد علم الكلام كثير من الفقهاء القدامى، وعلى رأسهم الأئمة الأربعة، والإمام الغزالي، والإمام الفخر الرازي، والإمام ابن رشد، وغيرهم، بل لم تكن لديهم الرغبة في الخوض في المسائل الكلامية؛ لأن هذا في

---

[١] يُنْظَر: مقدمة كتاب: «مناهج الأدلة»، (صـ: ٧٠).

[٢] يُنْظَر: «الإسلام وحاجة الإنسانية إليه»، لمحمد يوسف موسى: (صـ: ٥١)، ط: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٩٩٥م.

[٣] يُنْظَر: «الإسلام والعقل»، أد/ عبد الحليم محمود: (صـ: ١٢٤ - ١٢٩)، دار المعارف بالقاهرة، ط: الثالثه ١٩٨٨م، باختصار وتصرف.

نظرهم مدعاة للفرقة والاختلاف، في حين أنهم كانوا حريصين على لم شمل الأمة على صورة واحدة للعقيدة، تلك التي وردت في الكتاب المجيد والسُّنَّة النبوية، وعدم التعويل على العقل إلا في حدود ما جاء به الكتاب المجيد والسُّنَّة النبوية الشريفة [١].

إن صورة العقيدة التي يدعو إليها الفقهاء الأربعة هي صورة العقيدة التي كانت في عصر النبوة وعصر الخلافة الراشدة، وهي صورة بسيطة فعَّالة مؤثرة بعيدة عن آفاق التفلسف وشتات الاختلاف والتفرق، صورة تُركّز على العمل الموازي للنظر وترفض الخوض في المتشابه والقدر والذات الإلهية[٢].

المطلب الثالث: من أبرز أسباب قصور علم الكلام التقليدي

يُعدُّ من أبرز أسباب قصور علم الكلام التقليدي عن مواكبة الحياة ومستجداتها؛ تفريغه من مضمونه الاجتماعي، وواقع الحياة، مع أن القرآن الكريم يربط التوحيد بجميع مناحي الحياة؛ بحيث يصطبغ تفكير الإنسان وسلوكه الحياتي اليومي بالتوحيد، ويكون التوحيد صبغة لسائر مرافق حياة الإنسان، قال تعالى: **{صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِن اللهِ صِبْغَةً}**[٣]، فلقد كان التوحيد الذي يستوحيه المسلم من القرآن الكريم طاقة تُنْتِج الإيمان، وتُوَجِّه السلوك الإنساني نحو القيم والعمل الصالح الذي ينفع البشرية، ويعود

---

(١) يُنْظَر: «نقد الفقهاء لعلم الكلام بين حراسة العقيدة وحركة التاريخ»، أد: أحمد محمد سالم: (صـ: ١٠ – ٢٩)، ط: رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط: الأولى ٢٠٠٨م. باختصار وتصرف.

(٢) يُنْظَر: «المجددون في الإسلام»، أ.د/ أمين الخولي: (١٣٦/٢)، ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة: ١٩٩٢م.

(٣) [البقرة: ١٣٨].



بالخير على الإنسانية، فليس هناك انفصام بين الإيمان الذي هو حالة وجدانية، وبين السلوك الإنساني الذي هو مسيرة بشرية مفعمة بالحياة، لكن علم الكلام القديم الذي استند إلى أدوات المنطق الأرسطي على طول الخط كان يتعامل مع المعتقدات بوصفها مفاهيم ذهنية مجردة لا صلة لها بالواقع، وغدت حقائق العقيدة تشبه أن تكون تصديقات ذهنية ليس لها غاية سلوكية، وإنما تكمن غايتها في ذاتها، وابتعد علم الكلام عن حقيقة التوحيد التي كانت في عصور الازدهار الإسلامي تطبع حياة المسلمين كلها تشريعًا وآدابًا وفنونًا وعمارة، وتسبب هذا التجريد الكلامي في تقلص أثر التوحيد في مناحي الحياة العملية للمسلمين[١].

والمؤسف أن نقول: برغم وجود الإيمان بالله ووحدانيته في واقع المسلمين المعاصرين، فإن هذا الإيمان فَقَدَ إشعاعه الاجتماعي، وتجرد من فاعليته؛ فلم تَعُدْ عقيدة التوحيد تُوحِّد المجتمع، وتؤاخي أبناءه، تُوحِّده في التصورات والغايات والشعور وأنماط السلوك، وبدلًا من أن يحول علم التوحيد دون اقتتال الأمة الواحدة- أدَّى بهذا النسق الكلامي الأرسطي إلى انقسام المجتمع إلى فرق متعددة، وجماعات متباينة تسببت في نشوب حروب أهلية في بعض الفترات، واضمحل دور العقيدة وفاعليتها في المجتمعات الإسلامية[٢] .

---

[١] يُنْظَر بحث: «واقعية المنهج الكلامي، ودورها في مواجهة التحديات الفلسفية المعاصرة» أ د: عبد المجيد النجار، (ص: ١٦١)، مجلة المسلم المعاصر، عدد: (٦٠)، شوال سنة: ١٤١١هـ- ١٩٩١م.

[٢] يُنْظَر: «مقدمة في السؤال اللاهوتي»: (صـ: ٢٣ - ٢٤)، بتصرف واختصار..

ولا يمكن أن نُغفل جهود علمائنا الأكارم الذي حاولوا ولا زالوا يحاولون في ردّ العقيدة إلى سابق عهدها، ومن هؤلاء الأفذاذ الشيخ الأستاذ الإمام محمد عبده في «رسالة التوحيد»، والذي تجاوز فيه مفاهيم أساسية في التراث الكلامي، ونقضها وأوضح تهافتها، وكذلك الشيخ محمد الغزالي الذي نافح عن العقيدة الإسلامية وضرورة تجديدها في أكثر من مؤلف من مؤلفاته، منها على سبيل المثال: «عقيدة المسلم»، و«ركائز الإيمان بين العقل والقلب»، و«كيف نفهم الإسلام»، وغيرها، وكذلك الشيخ مصطفى صبري في كتابه الهام والماتع: «موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين»، وغير هؤلاء كثيرون.

المطلب الرابع: موقف الفقهاء من علم الكلام

على الرغم من أن الإمام أبا حنيفة النعمان رضي الله عنه كان يُناظر الخوارج والمرجئة والمعتزلة والقدرية، ويغلبهم في هذه المجادلات والمناظرات، فإنه ومعه فقهاء عصره كانوا يعتقدون أن الصحابة والسلف الصالح أعلم بحقائق الأمور، ولم يخوضوا فيما خاض فيه المتكلمون المتأخرون؛ فالكلام لم يكن سيماء المتقدمين، ولا منهاج السلف الصالحين، وكان الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه يرى أن علم الكلام يُوَرِّث قسوة القلب، وغلظة النفس، وهذا يؤدي إلى محو فاعلية العقيدة في حياة المسلم، فضلًا عن أن الخوض في علم الكلام يؤدي إلى التكفير المتبادل بين التيارات المتنازعة بحسب وجهة نظر الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه[١].

---

[١] يُنْظَر: «مفتاح السعادة ومصباح السيادة»، لطاش كبرى زادة: (٢/ ١٣٦ - ١٤٠)، ط: دار الكتب العلمية بيروت، بدون، باختصار وتصرف..



وكان أبو حنيفة رضي الله عنه يخشى من أن يؤدي علم الكلام إلى حجب العناية بالكتاب المجيد، والسُّنَّة النبوية المطهرة، أو يؤدي إلى حدوث البدع وانتشارها، وكان يحث تلاميذه على الإقبال على الفقه، وينهاهم عن الخوض في علم الكلام؛ وذلك لأن الفقه أنفع للناس في حياتهم، كما أن الاختلاف في المسائل الفقهية لا يؤدي إلى التكفير المتبادل، بخلاف علم الكلام[1].

وأما الإمام مالك رضي الله عنه فكان أبعد الناس عن مذاهب المتكلمين، وكان ألزم الناس بطريقة السلف من الصحابة والتابعين[2]، وكان مالك رضي الله عنه يقول: «أهل البدع الذين يتكلمون في أسماء الله وصفاته وكلامه وعلمه وقدرته، ولا يسكتون عما سكت عنه الصحابة والتابعون»[3]، قال عبد الرحمن بن مهدي: «دَخَلْتُ عَلَى مَالِكٍ وَعِنْدَهُ رَجُلٌ يَسْأَلُهُ عَنِ الْقُرْآنِ فَقَالَ: (لَعَلَّكَ مِنْ أَصْحَابِ عَمْرِو بْنِ عُبَيْدٍ لَعَنَ اللَّهُ عَمْرًا فَإِنَّهُ ابْتَدَعَ هَذِه الْبدع من الْكَلَام ولو كان الْكَلَامُ عِلْمًا لَتَكَلَّمَ فِيهِ الصَّحَابَةُ وَالتَّابِعُونَ كَمَا تَكَلَّمُوا فِي الْأَحْكَامِ وَالشَّرَائِعِ وَلَكِنَّهُ بَاطِلَ يَدُلُّ عَلَى بَاطِلٍ»[4]، وكان مالك رضي الله عنه يقول: «الكلام في الدين أكرهه، ولم يزل أهل بلدنا يكرهونه، وينهون عنه نحو الكلام في رأي جهم والقدر، وكل ما أشبه ذلك، ولا أحب

---

[1] يُنْظَر: «ذم الكلام وأهله»، للهروي: (٥/٢٢١)، تحقيق: عبد الرحمن الشبل، مكتبة العلوم والحكم –المدينة المنورة– السعودية، ط: الأولى ١٩٩٨م.

[2] يُنْظَر: «مالك .. حياته وعصره .. وآراؤه وفقهه»، للشيخ محمد أبو زهرة: (صـ:١٥٣)، دار الفكر العربي– القاهرة، دون.

[3] يُنْظَر: «ذم الكلام وأهله»، للهروي: (٥/٢٢١).

[4] يُنْظَر: «السابق نفسه»: (٥/٧٢ – ٧٣).

الكلام إلا فيما تحته عمل، فأما الكلام في الدين وفي الله عز وجل، فالسكوت أحب إلي؛ لأني رأيت أهل بلدنا ينهون عن الكلام في الدين إلا فيما تحته عمل[1].

وكان الإمام الشافعي رضي الله عنه من أكثر الأئمة الذين هاجموا علم الكلام بضراوة، وكان يرى أنهم يتكلمون في مسائل دقيقة تجاوز حدود العقل البشري، وأن الخوض فيها يفرِّق المسلمين؛ فكان ينتقد رؤية العقيدة الإسلامية في إطار الموروث الثقافي اليوناني، ويرى أن الناس لما مالوا إلى لسان أرسطو، وتركوا لسان العرب كان ذلك سببًا في سيادة الجهل، والقرآن الكريم إنما نزل في أسلوب المحاورة والتخاطب والاحتجاج والاستدلال على مصطلح العرب، لا على مصطلح اليونان، ولكل قوم لغة واصطلاح، قال تعالى: **{وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}**[2]، فالوسيلة التي اتخذها الإمام الشافعي رضي الله عنه وسيلة لنقد علم الكلام هي خصوصية العلاقة بين الإسلام واللغة العربية[3]، وكان الشافعي رضي الله عنه يقول: «مذهبي في أهل الكلام تقنيع رؤوسهم بالسياط، وتشريدهم في البلاد»، وفي رواية أخرى:

---

[1] يُنْظَر: «صون المنطق والكلام عن فني المنطق والكلام»، للإمام جلال الدين السيوطي: (١/ ١٨٥)، تحقيق: الدكتور علي سامي النشار، والسيدة سعاد علي عبد الرازق، تقديم: الشيخ عبد الحليم محمود، ط: مجمع البحوث الإسلامية، سلسلة إحياء التراث الإسلامي.

[2] [إبراهيم: ٤].

[3] يُنْظَر: «نقد الفقهاء لعلم الكلام بين حراسة العقيدة وحركة التاريخ»: (صـ: ٤٤ – ٤٦)، باختصار وتصرف.

«حكمي في أهل الكلام أن يُضربوا بالجريد والنعال، ويُطاف بهم في العشائر والقبائل، ويُقال هذا جزاء من ترك الكتاب والسُّنَّة، وأقبل على الكلام»[1].

فقد كان الشافعي رضي الله عنه يرفض بحدة وبشدة الجدال حول الأصول، بينما كان متسامحًا- ولأبعد مدى- في الاختلاف في الفقه والفروع، وكان يقول مقولته الشهيرة السيارة: «رأيي صواب يحتمل الخطأ، ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب»، وكان رفضه الشديد لعلم الكلام مبنيًّا على أن الخلاف حول الأصول مدعاة للفرقة والتشرذم، وفتح باب للتبديع والتكفير، وكان يقول: «سلني عن شيء إذا أخطأت فيه قلت: أخطأت، ولا تسألني عن شيء إذا أخطأت فيه قلت: كفرت»[2].

وقال الشافعي لأبي إبراهيم المزني: «هذا علم إن أنت أصبت فيه لم تُؤجَر، وإن أنت أخطأت فيه كفرت»[3].

ونُقِلَ عن الإمام الشافعي قوله: «لو يعلم الناس ما في علم الكلام من الأهواء لفروا منه فرارهم من الأسد»[4].

---

[1] يُنْظَر: «مناقب الشافعي»، للفخر الرازي: (صـ: ٩٩)، تحقيق: أحمد حجازي السقا، مكتبة الكليات الأزهرية، ١٩٨٦، و«شرح الطحاوية»، لابن أبي العز الحنفي: (صـ: ١٧)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار التراث- القاهرة، دون.

[2] يُنْظَر: «مناقب الشافعي»، للبيهقي: (١/٤٦٠)، تحقيق: السيد صقر، دار التراث- القاهرة، ١٩٧٠م.

[3] يُنْظَر: «طبقات الشافعية الكبرى»، لتاج الدين السبكي: (٢/٩٨)، تحقيق، د: محمود محمد الطناحي، د: عبد الفتاح محمد الحلو، ط: هجر للطباعة والنشر والتوزيع، ط: الثانية، ١٤١٣هـ.

[4] يُنْظَر: «مفتاح السعادة» لطتش كبرى زادة، (٢/ ٢٦)، ط: حيدرآباد، دون.

وكان الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه أكثر الفقهاء الذين تعرضوا للمحن نتيجة مواقفه من علم الكلام، ونقده لآراء المعتزلة، ودخل بسبب ذلك عقودًا متتالية في محنة خلق القرآن، فكان رضي الله عنه يرى أن علم الكلام زندقة، قال: «لَا يُفْلِحُ صَاحِبُ الْكَلَامِ أَبَدًا، وَلَا تَكَادُ ترى أحدًا نظر في الكلام إلا وفي قلبه دغل على أهل الإسلام؛ لأنهم بنوا أمرهم على أصول فاسدة أوقعتهم في الضلال» [١].

وقال ابن قتيبة الدينوري تحت عنوان: الرد على أصحاب الكلام وأصحاب الرأي: «وقد تدبرت- رحمك الله- مقالة أهل الكلام فوجدتهم يقولون على الله ما لا يعلمون، ويفتنون الناس بما يأتون ويبصرون القذى في عيون الناس، وعيونهم تطرف على الأجذاع؛ أي تغمض على النخل مع طوله، ويتهمون غيرهم في النقل، ولا يتهمون آراءهم في التأويل[٢].

ولعل قائل يخبط خبط عشواء فيقول: إن علماءنا الأماجد الأماثل قالوا هذا الكلام لقصر عقلهم وعجز أفهامهم عن إدارك وفهم هذا العلم ومجاراة أهله والجواب هنا للإمام السيوطي، حيث يقول:

"ولم يترك الأئمة الماضون والسلف المتقدمون الخوض في علم الكلام والنظر عن عجز عنه، أو انقطاع دونه، وقد كانوا ذوي عقول وافرة، وأفهام ثاقبة، وقد كان وقع في زمانهم هذه الشبه والآراء وهذه النحل والأهواء، وإنما

---

[١] يُنْظَر: «مناقب الإمام أحمد» لابن الجوزي، (ص: ١٥٨)، ط: دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط: الأولى ١٩٧٣م، «درء تعارض العقل والنقل» لابن تيمية، (٧/ ١٤٧).

[٢] يُنْظَر: «تأويل مختلف الحديث» لابن قتيبة، (ص: ٦١)، ط: المكتب الإسلامي ومؤسسة الإشراق، ط: الثانية ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.

تركوا هذه الطريقة، وأضربوا عنها لما تحققوا من فتنتها، وحذروا من سوء مغبتها، وقد كانوا على سنة من أمرهم وعلى بصيرة من دينهم، لما هداهم الله له من توفيقه، وشرح به صدورهم من نور معرفته" [(١)].

وفي ضوء ما سبق نقول: مما لا شك فيه أن حركة تنقية العقائد الإسلامية من التصورات القديمة والأطروحات البالية والانحرافات الخطيرة، ضرورة عقدية يمليها الظرف الزماني والمكاني؛ لإرجاع الوضوح والفاعلية إلى عقيدة المسلم وإنقاذه من النظريات الدخلية التي دخلت من خلال الفلسفة وعلم الكلام، أو مثيلاتها التي دخلت من خلال ما يُدعى بالفلسفة الصوفية؛ على إثر هذه النظريات تقيد العقل المسلم وطُبع بطابع السلبية والهروب من صراعات الحياة المعاصرة إلى صراعات قديمة لم يعد لها أثر ولا عين، فكان تجديد العقيدة بإزالة الاتجاهات الخرافية والشطحات الصوفية وتعقيدات علم الكلام بوابة الشهود الحضاري لأمتنا الإسلامية حتى تتبوأ مكانتها بين الأمم وتسهم بدورها في صناعة الحضارة كما كانت في سابق عهدها.

---

(١) يُنْظَر: «صون المنطق والكلام عن فني المنطق والكلام»، للسيوطي: (صـ: ١٣٩ – ١٤٠).

المبحث الرابع: جمالية التوحيد في التعبير القرآني

المطلب الأول: العقيدة كما أنزلت من عند الله وما آلت إليه

المطلب الثاني: التوحيد غاية النص القرآني

المطلب الثالث: تناول القرآن الكريم لقضايا التوحيد

المطلب الرابع: المنهج القرآني في الدعوة إلى التوحيد

مدخل:

البون شاسع بين تعبير الفلاسفة والمتكلمين عن عقيدة التوحيد وتعبير القرآن الكريم؛ فتعبير القرآن له جلاله وجماله، ودقته البارعة في التصوير، وبلاغته في صب المعاني الكبيرة في مبانٍ قليلة، فضلًا عن بساطته ووضوحه الذي يفهمه الجاهل والمتعلم، هذه حقيقة لا يماري فيها صاحب عقل.

أما علم الكلام، فقد سيق لضرورة حجاجية حينًا وضرورة تعليمية أحايين أخرى، وبطبيعة الحال ما كان لهذا العلم الجدلي أن يؤتي ثمرة إيمانية؛ فقد أُنتج لاشباع رغبات العقل الحجاجي.

أضف إلى ذلك أنه لا يمكن أن يعبر مخلوق عن خالق، وكيف يُعبر عنه وهو لا يدرك ذاته ولا كنهه، بالضرورة سيكون التعريف قاصرًا بكل ما تحمل الكلمة من معنى، سيكون تعبيرًا أقل ما يقال عنه إنه مشوش، ومن هنا استدعت الضرورة أن يكون التعريف بالله من الله، تعبير عن ذاته بذاته، ولهذا كان القرآن الكريم أصدق وأوفى تعبير عن عقيدة التوحيد، وهو ما سنحاول إيضاحه في هذه المبحث بقدر ما يأذن ويفتح لنا ربنا سبحانه وتعالى.

المطلب الأول: العقيدة كما أُنزلت من عند الله وما آلت إليه

العقيدة لغة: قال ابن فارس: العين، والقاف، والدال، أصل واحد يدل على شدّ وشدّة وثوق مأخوذة من العقد، وهو نقيض الحل، والعقيدة: الحكم الذي لا يقبل الشك فيه لدى معتقده(١).

اصطلاحًا: هي الأمور التي يجب على المسلم اعتقادها بقلبه مما يتعلق بالله عز وجل وأركان الإيمان الأخرى ومسائل تلحق بذلك مثل مسائل الإيمان والخلافة ونحوها(٢).

وبهذا المفهوم جاء سائر الأنبياء والمرسلين عليهم صلوات الله عليهم أجمعين، بل إن مسألة الدعوة إلى التوحيد والتحذير من الشرك هي القضية الأولى المحورية في القرآن الكريم، فقال تعالى مخبرًا محمد صلى الله عليه وسلم ما جاء به جميع الرسل من قبله،**{وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ}**(٣)، وقال تعالى: **{وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ}**(٤)، وقال تعالى: **{وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ}**(٥)، وفي شأن نوح عليه السلام، قال تعالى: { **لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ**

---

(١) يُنْظَر: «معجم مقاييس اللغة» تأليف: أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، (٤/ ٨٦)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: دار الفكر ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

(٢) ينظر: «العقيدة الإسلامية في مواجهة التيارات الإلحادية» أ د: فرج الله عبد الله الباري، (ص: ٨)، ط: دار الأفاق العربية، بدون.

(٣) [الأنبياء: ٢٥].

(٤) [الزخرف: ٤٥].

(٥) [النحل: ٣٦].

اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ}[1]، وبحق هود عليه السلام، قال تعالى: **{وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ}**[2] وبحق صالح عليه السلام قال تعالى: **{وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ}**[3] وبحق إبراهيم عليه السلام قال تعالى: **{وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ}**[4]، وبحق موسى عليه السلام، قال تعالى: **{إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي}**[5].

فصحة العقيدة وسلامتها من الانحراف وخاصة مفهوم لا إله إلا الله، هو معيار الصحة والمرض، الذى نقيس به حال الأمة فى وقتنا المعاصر، وهو صورة هذه العقيدة كما أنزلت من عند الله، وكما علمها رسول الله- صلى عليه وسلم- لأصحابه -رضوان الله عليهم- وطبقتها الأجيال الأولى من هذه الأمة، مقارنة بما صارت إليه عند الأجيال الأخيرة من المسلمين، وإذا عقدنا المقارنة على هذا النحو، فسنجد مجموعة من الأمراض قد أصابت مفهوم التوحيد الخالص: لا إله إلا الله، محمد رسول الله، خلال المسيرة التاريخية للأمة، أفرغتها من مضمونها الحقيقى، ومن شحنتها الدافعة، وحولتها إلى كلمة تقال باللسان والقلب غافل عن دلالتها، والسلوك مناقض لمقتضياتها[6].

---

[1] [الأعراف: ٥٩].

[2] [الأعراف: ٦٥].

[3] [الأعراف: ٧٣].

[4] [العنكبوت: ١٦].

[5] [طه: ١٤].

[6] يُنْظَر: «التجديد في الفكر الإسلامي المعاصر»، (ص: ١٧٢).

فكانت النتيجة الطبيعية لهذه الأمراض هى التخلف فى جميع الميادين، وكان ذلك كفيلًا بالقضاء على الأمة الإسلامية، لولا فضل الله تعالى ورحمته ومشيئته المسبقة أن تبقى هذه الأمة على وجه الأرض إلى قيام الساعة[١].

إن عقيدة الإسلام لم تكن في القرآن الكريم ولا في السنة النبوية إلا لمسة تربوية ذات أثر روحي عميق في الوجدان والسلوك، وقد كان المسلمون عندما يتلقونها بعبارات القرآن الجليلة، يتفاعلون معها تفاعلًا عجيبًا؛ إذ يتحولون بسرعة وبعمق كبير من بشر عاديين مرتبطين بعلائق التراب، إلى خلائق سماوية تنافس الملائكة في السماء! وما هم إلا بشر يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق؛ ولذلك حقق الله بهم المعجزات في الحضارة والتاريخ، إن الكيمياء الوحيدة التي كانوا يتفاعلون بها هي «لا إله إلا الله» لكن ليس كما صورها علم الكلام بشتى مذاهبه، وإنما كما عرضها القرآن آيات بينات ومحكمات[٢].

إن علم الكلام استطاع في فترات الجدال العقلي بين الخاصة أن ينقذ الإيمان العقلي، ولكنه لم يستطع أن يصوغ حياة المسلم صياغة ربانية تحقق المعنى الحقيقي لعبودية الإنسان لرب العالمين[٣].

---

[٢] يُنْظَر: «علل وأدوية» الشيخ محمد الغزالى، (ص:٨٠)، ط: دار الكتب الإسلامية- القاهرة، ط: الثانية ١٤٠٥هـ - ١٩٨٧م.

[٢] يُنْظَر: «جمالية الدين» فريد الأنصاي، (ص:٦٣)، ط: دار السلام- القاهرة، ط: الثامنة ١٤٤١هـ-٢٠٢٠م.

[٣] يُنْظَر: «التجديد في الفكر الإسلامي المعاصر»، (ص: ١٧٢).

أي إن علم الكلام، لتأثره الواضح بالمنهج الفلسفي الجاف، لم يستطع أن يتحول إلى مدرسة للتربية الاجتماعية؛ ولذلك نرى أن مجرد إيمان المسلمين بالله لم يستطع أن ينقذ سلوكهم في العصور الأخيرة من كارثة البعد والشرود التي أدت إلى انحدارهم وسقوطهم وفقدان حقائق التوحيد من حياتهم[١].

إن التقسيمات الكلامية للعقيدة الإسلامية التي أملتها ضرورة حجاجية حينًا، وضرورة تعليمية حينًا آخر، ليست ذات جدوى في عالم التربية الإيمانية؛ لخلوها من روحها الرباني، وسرها التعبدي، الذي لا تجده إلا في كلمات القرآن وحروفه، فضلًا عن أن التعبير عن حقيقة الذات الإلهية لا يكون على كمال صدقه جلالًا وجمالًا، إلا إذا كان بما عبر به عن ذاته سبحانه وصفاته، وما كان للنسبي المحدود أن يحيط وصفًا وعلمًا بالمطلق غير المحدود، ومن هنا كان التوقيف في مجال التعبير العقدي في الإسلام[٢].

ويمكن تجديد الطرح الكلامي لقضايا العقيدة، بخاصة التوحيد، وذلك من خلال القرآن الكريم؛ فقد رسم السبيل لإثبات وجود الله تعالى وصفاته القائمة به -سبحانه- كما يمكن كذلك الاستعانة بالعلم الحديث الذي قدم براهين كثيرة، على غرار ما كُتب في قصة الإيمان لنديم الجسر، والعلم يدعو للإيمان لكريسي موريسون، والله يتجلى في عصر العلم لنخبة من العلماء الأمريكيين (تحقيق: محمد جمال الفندي)، ومع الله في السماء لأحمد زكي،

---

(١) يُنْظَر: «تجديد الفكر الإسلامي» أ.د: محسن عبد الحميد (ص: ١١٤)، ط: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط: الأولى ١٤١٦هـ- ١٩٩٦م.

(٢) يُنْظَر: «جمالية الدين»، (ص:٦٤).

والله في عصر العلم للغمراوي، والإسلام يتحدى لوحيد الدين خان، وسائل النور للنورسي. وقد ذكر المعاصرون كثيرًا من الأدلة على وجود الله ووحدانيته وعلمه وقدرته لم ترد عند السابقين مع وجود أصولها في القرآن الكريم[١].

ويمكن القول إن القرآن الكريم هو المصدر الأول في قواعد المنهج الذي يتعامل مع العقيدة الإسلامية، وهو المؤسس لها، وفيه بيان لأصول الدين، سواء في العقليات أو السمعيات، وهو اعتماد لظاهر القرآن دون تأويل، ودون خوض في المتشابه بالتأويل، والإيمان بأن حدود العقل البشري تكون في سياق السمع، دون تجاوز العقل للسمع في ذلك.

المطلب الثاني: التوحيد غاية النص القرآني

التوحيد دعامة الدين الكبرى، وعليه تقوم المنظومة الدينيَّة كلّها وبكل ما تنعكس عليه، ممَّا جاء به الرسل الكرام كلهم، دون أي استثناء.

والتوحيد هو المبدأ الذي يحدّد للإنسان ماهيته الإنسانيَّة، وحقيقته البشريَّة، ويُحدَّد بمقتضاه دوره في هذه الحياة، وقيمة فعله وحركته في هذا الوجود.

والتوحيد هو الذي يشكل للإنسان عالم غيبه، ويحدِّد له الفواصل والخطوط والمعالم بين عالم غيبه وعالم شهادته فلا تلتبس عليه السُّبل، ولا تتقاذفه التيَّارات والأهواء.

---

[١] يُنْظَر: «خطبة الجمعه والعيد بين التقليد والتجديد» أ. د: بكر زكي إبراهيم عوض، (ص: ١٩٨) وما بعدها، كتاب جامعي، بتصرف.

والتوحيد حجر الزاوية في رسالات الرسل كافة وتعاليم الأنبياء أجمعين.

«وما كان التوحيد بهذه المكانة، ولا حظي بكل ذلك الاهتمام، إلا لأن كل ما عداه متوقف عليه لا يتحقق ولا يستقيم إلا به؛ فعلى سلامة التوحيد تتوقف أركان الإيمان كلها، وعلى طهارته من سائر أنواع الشرك تتوقف دعائم الإحسان جميعها، ولا تقوم الرؤية الكلية الهادية إلا عليه، إنه وسيلة الإشعاع والإنارة لكل ما سواه؛ فلا يستقيم التصور الإنساني لمن خدش الشرك عقيدة التوحيد فيه»(١).

التوحيد هو غاية النص القرآني في هذه المنظومة القرآنية، عنه تتفرع سائرها، وعليه يقوم بناؤها، والتوحيد الذي يأخذ هذا الموقع من هذه المنظومة: هو ذلك الذي جاء القرآن المجيد به نقيا خالصًا سليمًا من سائر الشوائب؛ فلو شابته أية شائبة أو خالطته الأخلاط فقد نقاءه، وبطلت فاعليته، أو ضعفت آثاره، وانطفأت جذوته، وتوقفت تجلياته(٢).

التوحيد هو الشهادة عن إيمان بأن لا إله إلا الله، هذه الشهادة السلبية في مظهرها، والمختصرة اختصارًا لا اختصار بعده، تحمل أسمى المعاني وأجلَّها، فإذا أمكن التعبير عن حضارة برمتها بكلمة واحدة، إن أمكن صبّ كل هذا الثراء والتنوع والتاريخ في أبلغ الكلام، وهو أقصره طولا وأكثره دلالة، كان هذا في لا إله إلا الله عنوانًا للتوحيد، ومن ثم للحضارة الإسلامية.

---

(١) يُنْظَر: «التوحيد والتزكية والعمران: محاولات في الكشف عن القيم والمقاصد القرآنية الحاكمة» أ د: طه جابر العلواني، (ص: ١٦)، ط: دار الهادي- بيروت ٢٠٠٣م.

(٢) يُنْظَر: «التوحيد والتزكية والعمران»، (ص: ١١).

فشهادة التوحيد تتصف بالدلالة السلبية من ناحية إلحاحها المستمر على التجاوز لكل موقف مُعطى، ولكل رأي منصب على أنه هو الصحيح، فهو قد يكون كذلك، لكن إلى حين، وحين قصير، ومع الاختصار في العنوان إلا أنه أغنى ممكن نظري، بوصف بدايته من سرمدي مطلق متعال، وينتهي إلى سرمدي متعال مطلق، وبينهما الزماني والنسبي، وهما بدورهما مشدودان إلى قيمة المتعالي والمتجاوز، وهذا يحفظه (التوحيد) من الوقوع في دوامة النسبوية، ويتيح له إبراز التنوع المختلف، والإبداع والابتكار[(١)].

المطلب الثالث: تناول القرآن الكريم لقضايا التوحيد

حتى ندرك عظمة التوحيد، والأهمية البالغة لنقائه وصفائه وخُلُوصه من جميع الشوائب، نستطيع أن نتدبر القرآن المجيد، ومعالجته المتنوعة لسائر قضايا التوحيد، ويمكن أن نرصد بعض مستويات التناول على هذا النحو:

المستوى الأول: التصريح بأن جميع الرسل جاءوا به[(٢)]

تناول القرآن الكريم التوحيد بوصفه الحقيقة الكبرى الأزليَّة الثابتة التي بلغ من ظهورها ووضوحها وثباتها، بحيث ينبغي أن تُقرر بصيغ الإعلان والتقرير، دون الالتفات إلى أي شيء أُثير أو يثار حولها؛ إذ لا يمكن لشيء

---

(١) يُنْظَر بحث: «التوحيد رؤية للكون وإبستمولوجيا بناء الوعي المتجاوز عند إسماعيل الفاروقي» الحاج بن أحمنة دواق، (ص: ٢٠)، مجلة إسلامية المعرفة، مجلة فصلية محكمة يصدرها المعهد العالمي للفكر الإسلامي، عدد (٧٤)، السنة التاسعة، ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م.

(٢) يراجع ما جاء في المطلب الأول: «العقيدة كما أُنزلت من عند الله»، والذي جاء تحت عنوان: «جمالية التوحيد في التعبير القرآني» المبحث الرابع.

أن يتطاول إلى مستوى النيل من هذه الحقيقة العليا، ومن آيات هذا المستوى[(١)]:

قال تعالي: {وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ}[(٢)]، **وقوله تعالي: {اللّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاء وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ}**[(٣)]، وقوله تعالى: {**شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**}[(٤)]، وقوله تعالى: {**اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا**}[(٥)]، وقوله تعالى: {**ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ**}[(٦)]، وقوله تعالى: {**اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ**}[(٧)].

---

(١) يُنْظَر: المنهجية الإسلامية، أ.د: أحمد فؤاد باشا، أ.د: حسن الشافعي، مجموعة من المؤلفين، (١/ ٣٨٣)، ط: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط: الأولى ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م.

(٢) [البقرة: ١٦٣].

(٣) [البقرة: ٢٥٥].

(٤) [آل عمران: ١٨].

(٥) [النساء: ٨٧].

(٦) [الأنعام: ١٠٢].

(٧) [الأنعام: ١٠٦].

المستوى الثاني: البيان العملي بأن جميع الرسل دعوا إليه

بيان وتقرير أن التوحيد هو المضمون الأساس والرئيس لرسالات جميع الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام، مع ربط التوحيد بصفات الباري سبحانه وتعالى، التي تكون بمثابة العلل للتوحيد بكل أنواعه ونفي الشركاء. وتتنوع أساليب هذه الآيات أحيانًا إلى التقرير ونفي ألوهية الأغيار مع إثبات الألوهية وحصرها فيه سبحانه وتعالى، وتقديم التوحيد بوصفه العبادة التي دعا الأنبياء كافة أقوامهم لحصرها به جل جلاله.

ومن أمثلة هذا المستوى آيات سورة الأعراف:**{لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ}**(١)،وقال تعالى: **{وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ}**(٢)،وقال تعالى: **{وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللّهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوَءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}**(٣)، إلى غير ذلك من الآيات(٤).

المستوى الثالث: إبطال ألوهية غير الله بمقدمات عقلية بدهية

هو مستوى الاستدلال على التوحيد، وفي هذا المستوى يستوعب القرآن المجيد كل ما بلغه العقل الإنساني في أعلى مستوياته الفلسفية والحكمية من

---

(١) [الأعراف: ٥٩].

(٢) [الأعراف: ٦٥].

(٣) [الأعراف: ٧٣].

(٤) يُنْظَر: «التوحيد والتزكية والعمران»، (ص: ٥٠).

طاقات على بناء الأدلة ونقضها، والاعتراض عليها أو تأييدها، ويتجاوز أعلى مستويات الفلسفات البشرية والمنطق الإنساني والقسمات العقلية والهندسية والكلامية؛ بحيث تصبح عملية إحصاء وترتيب تلك الأدلة وطرائقها بحد ذاتها ضربًا من الإعجاز.

وما ذكره المتكلمون من أدلة الخلق والعناية والتمانع لا تمثل إلا غيضًا من فيض الأدلة التي ساقها القرآن المجيد على التوحيد، وربما تأثر الكلاميون ببعض الآيات الكريمة التي سيقت في معرض الجدل مع الكفار، نحو قوله تعالى: **{قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لاَّبْتَغَوْاْ إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً}**(١)، وقوله تعالى:**{لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ}** (٢)، وقوله تعالى: **{مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ}**(٣)، لكن عند التدبر نجد الاستدلال على التوحيد يتنوع بشكل لا يشبهه ولا يقاربه أى مستوى عرفته البشرية في جدلها وحوارها واستدلالات فلاسفتها وحكمائها؛ فعلى سبيل المثال لا الحصر نجد القرآن الكريم يبين خصائص الإلهية وحقائقها، ووظائف الربوبية ودقائقها، والصفات التي ينبغي أن يتصف الإله بها، ثم ينفي ذلك كله عن غير الله تبارك وتعالى، ويثبته له جل شأنه وحده ويبين أنه وحده تبارك وتعالى المتصف بهذه الصفات الجدير بها، ولا أحد سواه يملك أيًّا منها، أو يمكن

(١) [الإسراء: ٤٢].

(٢) [الأنبياء: ٢٢].

(٣) [المؤمنون: ٩١].

أن يتصف به (١)، قال تعالى: {**إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (*) ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (*) وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (*) وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**}(٢)، إلى غير ذلك من الآيات.

كذلك يوظف القرآن المجيد صفات الله تعالى في الاستدلال على التوحيد ودعم قضيته بأسلوب معجز فهو يبين الصفة ويثبتها، ويبين تفردها وواحديته تعالى بالاتصاف بها، وقد يجعل تلك الصفات بمثابة العلة للألوهية؛ ولذلك فإن القارئ لهذه الآيات- أيًّا كان مستواه المعرفي- سرعان ما يدرك تفاهة وتهافت سائر الاعتقادات عدا الاعتقاد بواحدانية الله تعالى، ومن باب ضرب الأمثلة على تناول القرآن المجيد لقضية الصفات نورد على سبيل المثال صفة العلم(٣).

قال تعالى: {**إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا**}(٤)، وقوله تعالى: {**إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ**}(٥)،

---

(١) يُنْظَر: «المنهجية الإسلامية»، (١/ ٣٨٦).

(٢) [الأعراف: ٥٤- ٥٧].

(٣) يُنْظَر: «المنهجية الإسلامية»، (١/ ٣٨٧).

(٤) [طه: ٩٨].

(٥) [آل عمران: ٥].

وقوله تعالى: {**عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ**}(١)، وقوله تعالى:{**قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا**}(٢)، وقوله تعالى: {**يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا**}(٣)، وقوله تعالى: {**وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ**}(٤)، وقوله تعالى: {**قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**}(٥).

إلى غير ذلك من الآيات التي تناولت صفة العلم؛ بحيث لا يستطيع متدبر الآيات أن يخطر بباله الهبوط إلى مستوى قبول ألوهية أحد غير الله تعالى؛ فهو وحده الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

المطلب الرابع: المنهج القرآني في الدعوة إلى التوحيد

منهج القرآن في الدعوة إلى التوحيد

يمكننا أن نتلمس بعضًا من مناهج القرآن الكريم في الدعوة إلى التوحيد والأطر العلمية المنهجية التي دعا القرآن الكريم من خلالها إلى التوحيد، من هذه المناهج.

---

(١) [المؤمنون: ٩٢].

(٢) [الفرقان: ٦].

(٣) [سبأ: ٢].

(٤) [النحل: ١٩].

(٥) [الحجرات: ١٦].

أولًا: المنهج العقلي في الدعوة إلى التوحيد

أعني بالمنهج العقلي إقناع القرآن العقول بأن هناك إلهًا واحدًا لا شريك له عن طريق الإتيان بالبراهين والأدلة والحجج القوية التي لا يستطيع العقل أن يفلت من أسرها، ولا يملك معها إلا التسليم بأن هنا إلهًا واحدًا لهذا الكون مسيطرًا عليه ومهيمنًا ومدبرًا أمره كله.

القرآن الكريم حينما يدعو الإنسان إلى الوحدانية، فإنه يدعوه أن يتفكر ويعقل ويتأمل الكون كله من حوله؛ فهذا النظام المتقن المحكم غاية الإتقان والإحكام لابد أن يكون مدبره واحدًا حكيمًا، قال تعالى: **{لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا}**(١)، هذه الآية تُعَدُّ من أبلغ الأدلة العقلية على وحدانية الله تعالى، دليل نقي لا ينكره ولا يجادل فيه أحد؛ فالآية تقول: **{لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا}** و"لو" عند النحويين حرف امتناع لامتناع، تفيد امتناع الجواب لامتناع الشرط، والمعنى أن الفساد امتنع لامتناع تعدد الألهة، وامتناع الفساد واضح وبيّن وظاهر؛ فليس هنا فساد في حركة الكون، ولا فساد في تطور الحياة فيه منذ أن خلق الله الكون والليل والنهار يتعاقبان؛ فالكون محكوم بنواميس كونية وقوانين تجري بلا خلل على سنن مرسومة، ونظام محكم لا عوج فيها ولا أمتى(٢).

---

(١) [الأنبياء: ٢٢].

(٢) يُنْظَر: «منهج القرآن الكريم في الدعوة إلى التوحيد» أحمد محمد رحومة، (ص: ٩٥)، منشورات جميعة الدعوة الإسلامية العالمية- طرابس- ليبيا، دون، باختصار وتصرف.

فالآية إذن منطق عقلي سليم يأخذ النفس أخذًا رفيقًا سهلًا إلى هداها واطمئنانها، انظر إلى هذه الآية الكريمة وصداها يتردد في أجزاء الجزيرة العربية يوم كان الشرك ضاربًا أطنابه في أرجائها مشدودة أخطاره إلى نفوس المشركين، كانت تتردد أصداء هذه الآية ويحملها الركبان والمسافرون عبر الصحراء، فإذا عقولهم تدرك وحدانية الله، وإذا ألسنتهم تستجيب لهذا النداء السماوي وتردد(١): {**لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا**}(٢).

ومما يثير الدهشة ويجذب الانتباه أن أدرك وأنا أستدعي آيات القرآن الداعية إلى وحدانية الله بالأسلوب المنطقي، أن بعضها مكّية نزلت في مكة وخاصمت المشركين خصومة شديدة وأبطلت شركهم بالمنطق، وعلت صيحاتها في مكة حيث أقلقت مضاجع الشرك، وحركت عقول المشركين، ودفعتهم إلى التفكير في شأن ألهتهم الوضعية في ضوء قوله تعالى: {**أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ**}(٣)، ولكن حال دون الاستجابة ران على القلوب وحجاب على العقول وغشاوة على الأبصار (٤).

---

(١) يُنْظَر: «منهج القرآن الكريم في الدعوة إلى التوحيد»، (ص: ٩٧).

(٢) [الأنبياء: ٢٢].

(٣) [الأعراف: ١٩٥].

(٤) يُنْظَر: «منهج القرآن الكريم في الدعوة إلى التوحيد» أحمد محمد رحومة، (ص: ٩٥)، منشورات جميعة الدعوة الإسلامية العالمية- طرابس- ليبيا، دون، باختصار وتصرف.

ويمكننا القول أن الحجة في الآية قاطعة والدلالة قوية واضحة ومنطقية؛ لأن هذا دليل كوني مستفاد من الوجود ومنطق واقع مشهود، لا يماري لا يجادل فيه إلا من طُمس بصره وبصيرته؛ فهذه الآية رغم بساطة أسلوبها وكلماتها المعدودة، لكنها تغني عن حشو الفلاسفة وتعقيدات المتكلمين التي تزيد الحائرين حيرة بل وتشكك المؤمنين بعد ثبات.

وقد خاطب القرآن المجيد الإنسان بالدليل العقلي والبرهان القطعي على وحدانية الله تعالى، قال تعالى: **{مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ}**(١)، فالآية تحمل دليلين عقليين: **الأول:** عدم اتخاذ الله الولد؛ **الثاني:** عدم وجود إله معه؛ **فالأول** قوله تعالى: **{مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ}**، فقد نفى سبحانه وتعالى عن نفسه اتخاذ الولد نفيًا جازمًا أكيدًا بـ "ما"، وأكد النفي بـ"من" في قوله تعالى: **{مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ}**، والدليل المنطقي يفهم من الآية؛ لأنه لو اتخذ ولدًا لكان محتاجًا إليه، والحاجة بالنسبة لله باطل وضلال.

الثاني قوله تعالى: **{وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ}**(٢) لتفرد كل واحد من الآلهة بما خلق واستبد به، ورأينا ملك كل واحد منهم متميزًا عن ملك الآخر، ولغلب بعضهم بعضًا كما ترون حال ملوك الدنيا ممالكهم متمايزة وهم متغالبون، وحين لم تروا أثرًا لتمايز الممالك وللتغالب، فاعلموا أنه إله واحد بيده ملكوت كل شيء (٣)،

---

(١) [المؤمنون: ٩١].

(٢) [المؤمنون: ٩١].

(٣) يُنْظَر: «الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل» للزمخشري، (٣/ ٢٠٠)، ط: دار الكتاب العربي– بيروت، ط: الثالثة – ١٤٠٧ هـ.

وهنا يصرح بالدليل المنطقي في قوله: **{إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ}**، ولتعددت العوالم، ولكان هناك إله لكل عَالَم يصنع فيه ويدبّر وينفذ، وقد يكون هذا منشأ صراع ومنشأ تنافس بين العوالم(١).

وبما أن هذا الصراع وهذا التنازع لم يحدث في الكون، فهذا دليل على وحدانية الخالق سبحانه؛ فوحدة الكون وانتظام سننه ونواميسه تشهد بوحدانية الخالق والمدبر لهذا الكون؛ فأي دليل قطعي عقلي منطقي وأي حجة دامغة بعد هذه الحجة، إن الآية الكريمة منطق عقلي يخاطب المؤمنين كما يخاطب الملاحدة والمعاندين بأسلوب إقناعي لا يحتمل جدلًا ولا فلسفة، بل فقط تحتاج إلى عقل يعقل.

وهنا يجدر بنا أن نتساءل، لماذا التعبير بـ «ما» و«مِنْ» في الموضعين في قوله:**{مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ}**، **{وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ}**؟

تستخدم (ما) في الغالب للرد على قول في الدعوى، كأن يُقال لك أنت قلت كذا؟ فترد: ما قلت، أما لم أقل كذا، هذا يكون من باب الإخبار والتعليم فليست بالضرورة شرطًا أن تكون ردًّا على قائل، وما يدلل على هذا، قوله تعالى: **{تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا * الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا}**(٢) ، فكان التعبير القرآني هنا بقوله: **(وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا)** من باب الإخبار والتعليم وليس في السياق ما يدل على أنه رد، ودليل

---

(١) يُنْظَر: «منهج القرآن الكريم في الدعوة إلى التوحيد»، (ص: ١٠٥)، باختصار وتصرف.

(٢) [الفرقان: ١، ٢].

هذا أيضًا في الإسراء، قال تعالى: {**وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا**}(١)، بينما نلاحظ أنه قال في محاجته للمشركين {مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ}، {وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ} وذلك لقول المشركين: إن الملائكة بنات الله، فكان ردًّا على الذين يقولون اتخذ الله ولدًا، ومما يدلل على هذا قوله تعالى: **{وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ}**(٢)، فكان الرد عليهم (**وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللّهِ**) (٣).

قال الشوكاني رحمه الله: «مِنْ» فِي الْمَوْضِعَيْنِ زَائِدَةٌ لِتَأْكِيدِ النَّفْيِ، والتقدير: ما اتخذ الله ولدًا كما زعمتم، ولا كان معه إله فيما خلق(٤).

ثانيًا: المنهج الوجداني في الدعوة إلى التوحيد

لا خلاف أن القرآن الكريم يتخذ الطرق المختلفة للدعوة إلى التوحيد، وأن هذا الاختلاف مردّه إلى الفوارق بين بني البشر من حيث الفهم والإدراك والاستيعاب والذوق والأحاسيس التي تشكل صورة الفرد بما تجعله متمايزًا عن غيره، وتلك سنة الله في هذا التفاوت؛ ليؤدي كل فرد وظيفته في الحياة،

---

(١) [الإسراء: ١١١].

(٢) [آل عمران: ٧٨].

(٣) يُنْظَر: «البحر المحيط في التفسير» تأليف: أبي حيان محمد بن يوسف بن حيان، (١/ ١٩٧)، تحقيق: صدقي محمد جميل، ط: دار الفكر – بيروت، ط: ١٤٢٠ هـ .

(٤) يُنْظَر: «فتح القدير»، تأليف: محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، (٣/ ٥٨٧)، ط: دار ابن كثير، دار الكلم الطيب – دمشق، بيروت، ط: الأولى ١٤١٤ هـ بتصرف.

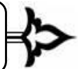
ولهذا فلقد راعى الذِّكر الحكيم هذا التنوع، فكان من منهجه في الدعوة إلى التوحيد المنهج الوجداني.

وقد اعتنى القرآن الكريم بدليل الفطرة التي جُبِلَ عليها الإنسان من معرفته بربه، قال تعالى: **{فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ}**[1]، فكل مولود يُولَد على خلقة يعرف بها ربه إذا بلغ مبلغ المعرفة؛ فالخلق مفطورون على السلامة والاستقامة الأصلية، يقول العلامة الطاهر ابن عاشور: «معنى فطر الناس على الدين الحنيف أن الله خلق الناس قابلين لأحكام هذا الدين، وجعل تعاليمه مناسبة لخلقتهم غير مجافية لها، غير نائين عنه ولا منكرين له، مثل إثبات الوحدانية لله؛ لأن التوحيد هو الذي يساوق العقل والنظر الصحيح حتى لو تُرِك الإنسان وتفكيره، ولم يُلقن اعتقادًا ضالًّا لاهتدى إلى التوحيد بفطرته. قال ابن عطية: والذي يعتمد عليه في تفسير هذه اللفظة أي الفطرة إنها الخلقة والهيئة التي في نفس الإنسان التي هي مُعَدَّةٌ وَمُهَيَّأَةٌ لأن يميز بها مصنوعات الله، ويستدل بها على ربه ويعرف شرائعه»[2]. اهـ. ثم قال ابن عاشور: «وإن لم أر من أتقن الإفصاح عن معنى كون الإسلام هو الفطرة فَأُبَيِّنُهُ: بأن الفطرة هي النظام الذي أوجده الله في كل مخلوق،

---

[1] [الروم: ٣٠، ٣١].

[2] يُنظَر: «التحرير والتنوير» للطاهر بن عاشور: (٢١/٩٠)، ط: الدار التونسية للنشر– تونس، ١٩٨٤م. وينظر أيضًا: «المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز»، لابن عطية: (٤/٣٣٦)، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، ط: دار الكتب العلمية– بيروت، ط: الأولى– ١٤٢٢هـ.



والفطرة التي تخص نوع الإنسان هي ما خلقه الله عليه جسدًا وعقلًا؛ فمشي الإنسان برجليه فطرة جسدية، ومحاولته أن يتناول الأشياء برجليه خلاف الفطرة الجسدية، واستنتاج المسببات من أسبابها والنتائج من مقدماتها فطرة عقلية، ومحاولة استنتاج أمر من غير سببه خلاف الفطرة العقلية وهو المسمى في علم الاستدلال بفساد الوضع، وجزمنا بأن ما نبصره من الأشياء هو حقائق ثابتة في الوجود والأمر نفسه فطرة عقلية، وإنكار السوفسطائية ثبوت المحسوسات في الأمر نفسه خلاف الفطرة العقلية»[١].

وبناء على ما سبق يُعَدُّ دليل الفطرة أهم دليل على الإطلاق في إثبات وجود الله تعالى؛ فالإنسان بفطرته المحضة يشعر أنه مخلوق مفتقر، وأن له خالقًا عظيمًا يحوز صفات الجلال والجمال والكمال، وهذه قضية لا تحتاج إلى برهان؛ لأنها واقعة في النفس الإنسانية بوضوح وجلاء، فالإيمان بوجود الله حقيقة مركوزة ومغروسة في الفطرة البشرية واضحة وجلية عند كل إنسان سوي.

ومن الآيات التي خاطبت الفطرة، قوله تعالى: **{أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ}**[٢]، كما يخاطب الإنسان بما يستثير كوامنه

---

[١] يُنظَر: «المرجع السابق»: نفسه.

[٢] [النمل: ٦١- ٦٣].

الفطرية، قال تعالى: **{قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ}**[(١)]، ويخاطبه بمقتضى العقل والمنطق، وقد ذكر الإمام الرازي في تفسير قوله تعالى: **{إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ}**[(٢)]، قوله: «إذا جاز أن يخلق الله تعالى آدم من التراب فلم لا يجوز أن يخلق عيسى من دم مريم؟ بل هذا أقرب إلى العقل، فإنّ تولُّد الحيوان من الدم الذي يجتمع في رحم الأم أقرب من تولُّده من التراب اليابس»[(٣)].

كما اعتنى القرآن الكريم كذلك بدليل الحس والمشاهد على وجود الله تعالى، كحديث القرآن الكريم عن المعجزات التي كانت آيات بينات على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم، وكالمشاهد من إجابة الداعين وغوث المكروبين قال تعالى: **{وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ}**[(٤)]، **قال سبحانه: {وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ**

---

(١) [الأنعام: ٦٣، ٦٤].

(٢) [آل عمران:٥٩ ، ٦٠].

(٣) يتظر: «التفسير الكبير» الإمام فخر الدين الرازي، (٨/ ٢٤٣)، ط: دار إحياء التراث العربي– بيروت، ط: الثالثة– ١٤٢٠هـ.

(٤) [الأنبياء: ٧٦، ٧٧].

أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ}[١]، وقال جل وعلا: **{وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ}**[٢].

وفي هذا الصدد، يقول الله تعالى أيضًا: **{أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ}**[٣].

ومن الأدلة التي تتساوق مع الفطرة وتتناغم معها دليل **الافتقار الاضطراري**، وهو لجوء المرء عند المحن والأزمات والابتلاءات إلى الفطرة السليمة التي هي مضطرة بطبعها إلى الإقرار بوجود الرب الخالق؛ إذ النفوس البشرية مضطرة عند حلول المصائب بها إلى الركون إلى تلك القوة

---

[١] [الأنبياء: ٨٣ – ٨٤].

[٢] [الأنبياء: ٨٥ – ٩٠].

[٣] [الواقعة: ٥٨ – ٧٤].



العليا التي تتوجه إليها بالدعاء والاستغاثة بكشف الضر ورفع الكرب، كما في قول الله تعالى: **{فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ}**(١)، وقوله: **{هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ }**(٢)، وقد لفت القرآن الكريم أنظارنا إلى هذا الاعتراف الفطري حيث قال في صيغة الاستفهام التقريري: **{أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ}**(٣).

كما اعتنى القرآن كذلك بدلالة الشرع على وجود الله تعالى، فذكر أن الله تعالى أرسل الرسل وأنزل الكتب، وسَجَّلَ أقوال الكافرين، وذكر ردود الوحي المبارك عليها حتى تكون حجة بالغة باهرة إلى يوم الدين، وسيظل القرآن الكريم كلام الله دليل صدق وأمارة حق على وجود الله تعالى(٤).

وفي نهاية المطاف، لا يخفى على ذي لب حصيف وعقل منيف أن آيات الذكر الحكيم تزخر بالكثير من الأدلة التي تتسق مع الوجدان وتتساوق

---

(١) [العنكبوت: ٦٥].

(٢) [يونس: ٢٢، ٢٣].

(٣) [النمل: ٦٢].

(٤) يُنْظَر: «الإلحاد للمبتدئين، دليلك المختصر في الحوار بين الإيمان والإلحاد»، أد/ هشام عزمي: (صـ: ٢٤ – ٣٢)، دار الكاتب للنشر والتوزيع، باختصار وتصرف.

مع الفطر السليمة والعقول المستقيمة، ليس في الكتاب المسطور فحسب، بل إذا أنعمت النظر في الكتاب المنظور، لوجدت كل صنعة صنعها الباري -سبحانه- تخبرك بلسان الحال بوحدانية الله وتفرده بالألوهية.

وختامًا: الذي يتتبع المنهج القرآني في معالجته لقضية التوحيد، يجد أن القرآن كان في غاية القوة والوضوح في دعوته إلى التوحيد، لا تفلت منه شاردة ولا واردة من النفس الإنسانية إلا وقد خرجت مقتنعة تمام الاقتناع بما تدعو إليه الآيات، فما تركت جانبًا إلا بصّرته بالحجة، ولا وجدت شيئًا في أنفسنا إلا أقنعته بالمناهج المختلفة كما سبق بيانه وعرضه.

المبحث الخامس: تجليات التوحيد وانعكاساته

المطلب الأول: تجليات التوحيد في النظام المعرفي

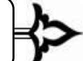
المطلب الثاني: تجليات التوحيد في النظام السياسي

المطلب الثالث: تجليات التوحيد في النظام الاجتماعي: الأسرة والأمة

المطلب الرابع: تجليات التوحيد في سائر مناحي الحياة

المطلب الخامس: التوحيد ينفي الاستبداد

المطلب السادس: رؤية التوحيد لعالمي الغيب والشهادة.



مدخل:

التوحيد محور الرسالات السماوية، وهو غاية النص القرآني، وحجر الزاوية في تكوين وبناء الرؤية الكلية عن الكون والإنسان، والحياة والأحياء، ويوضح حدود الدور المنوط بالإنسان في الكون وفي كل مناحي الحياة؛ ولذلك لا غرو أن تكون للتوحيد تجليات وانعكاسات، من هذه التجليات ما يأتي:

المطلب الأول: تجليات التوحيد في النظام المعرفي

إن الفلسفات البشرية ومصادر المعرفة الإنسانية ما زالت تتخبط في مواقفها من معظم القضايا الأساسية، مثل حقيقة الإنسان ومكانته ودوره في الحياة، وعلاقته بالطبيعة، وحقيقة الحياة، وحقيقة الموت، والتاريخ، والصيرورة، والزمن، وعلاقة الخالق بالمخلوق، وغير ذلك من الأمور التي تشكل الرؤية التوحيدية فيها أهم المعايير التي يزن الإنسان بها نشاطه النظري والعملي، وعليها يقيم موازين التفسير والتقويم لكل ما حوله، وينبني على أساسها علاقاته بالواقع الاجتماعي بجوانبه المختلفة.

ولهذا، حصر التوحيد مصادر المعرفة بمصدرين اثنين لا ثالث لهما، هما: الوحي (بمفهومه الواسع) والكون، والعقل بينهما وسيلة وأداة معرفة واستنباط وحدس وإدراك، بل وتوليد لأبعاد أخرى في الوقت ذاته، وفي الوقت نفسه يصنف التوحيد المعرفة إلى: سمعيات، ينحصر مصدر معرفتها بالسمع والنقل، ولا بد من تلقيها بطريق صحيح، وإلى تجريبيات، وطبيعيات، ضرورية أو كسبية، إلى غير ذلك من تفاصيل.

والسمعيات هي المصدر الوحيد لسائر الأمور الغيبية؛ فلا داعي لأن ينفق الإنسان– النسبي المحدود– أي شيء من عمره القصير وجهده العقلي، بعد ثبوت الدليل السمعي وإيمانه به، إلا في تلقي تلك المعلومات كاملة من الدليل السمعي، أما ما عدا ذلك من أنواع المعرفة، فكلها ممكنة ومتاحة ولدى الإنسان الاستعداد والآلات القادرة على الوصول إليها بالتعلم ومراكمة ذلك بالأقلام[١].

لأن القرآن أخبرنا أننا ولدنا لا نعلم شيئًا، قال تعالى: **{وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}**[٢].

كما علمنا أن مصدر العلم هو الله تعالى، قال تعالى: **{وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}**[٣]، وقال بحق نبيه صلى الله عليه وسلم: **{عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ}**[٤] ، وأن العلم ضروري أو كسبي أو عرفاني إنما هو عطاء الله، وحتى لا يطغى الإنسان أو يقف عند حد من المعرفة، قال تعالى: **{وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا}**[٥].

---

(١) يُنْظَر: «التوحيد والتزكية والعمران»، ص ٦٨.

(٢) [النحل:٧٨].

(٣) [البقرة:٣١] .

(٤) [العلق: ٥] .

(٥) [الإسراء: ٨٥] .

والتوحيد قبل ذلك وبعده يبني للإنسان المنهج العلمي، والنظام المعرفي، ويحدد له كل ما يتعلق بالمعرفة، بدءًا بالمنهج والنموذج، وفلسفة المعرفة وتاريخها وتصنيفها، وانتهاءً بوظائف العلم والمعرفة في حياة الإنسان والمجتمع؛ فهو نظرة عامة إلى الواقع والحقيقة والعالم والزمان والمكان والتاريخ البشري(١).

أضف إلى ذلك أن التوحيد يجعل العلم وسيلة للتقوى والارتباط بالله تعالى مصدر كل علم وخير ومعرف، قال تعالى: {**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ**}(٢)؛ فلا يستطيع الغرور بالمعلم والمعرفة أن يستولي على قلب الموحد أو عقله أو كليهما؛ فلا يقول المؤمن الموحد هذه المقولة، {**إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي**}(٣)، بل يقول دائمًا: {**سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ**}(٤)، وبذلك يوصل التوحيد علم الإنسان بالإنسانية كلها لا في حاضره فقط، بل يفتح أمامه آفاقًا ممتدة في الماضي إلى عهد آدم عليه السلام ليجعل كل ما توصلت إليه البشرية من علوم ومعارف، ودونته بأقلامها إرثًا له فيه نصيب.

المطلب الثاني: تجليات التوحيد في النظام السياسي

التوحيد قيمة مركزية في الإسلام؛ ففي المجال السياسي تتجلى قيمة التوحيد أساسًا في وحدة الأمة التي تُعدُّ شرطًا أساسيًّا لتحقيق مقاصد

---

(١) يُنْظَر: «المنهجية الإسلامية»، (١/ ٣٩٩).

(٢) [فاطر: ٢٨] .

(٣) [القصص: ٧٨] .

(٤) [البقرة: ٣٢] .

الخلافة السياسية الإسلامية، والمقصود هنا هو أن الأمة هي الوحدة التكوينية الكبرى في النظام السياسي الإسلامي، وإذا كان التوحيد هو صفة الله الواحد سبحانه، فإن ذلك يقتضي وحدة الأمة المنتسبة إلى دين الله، قال تعالى:{إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ}[١]، والأمة مفهوم إسلامي فريد يتصف بالعالمية التي تتجاوز العرق واللون واللغة والأرض، وتتجاوز السلطة السياسية، وبذلك تمكن المسلم الذي ينتمي إلى عقيدة التوحيد من أن يقوم بواجباته تجاه دينه، ويتمتع بحقوقه الشرعية في أي مكان على وجه الأرض يسمح له بذلك.

إن المشكلات السياسية التي يعاني منها العالم الإسلامي اليوم كثيرة ومعقدة، والسبب مرده إلى فقدان القيادة السياسية للرؤية الإسلامية، وفقدان يقينها بقدرة الإسلام والالتزام به على الخروج بالأمة مما هي فيه من ضعف وتخلف وغثائية[٢].

ولا نعني بضرورة انعكاس التوحيد على النظام السياسي تحويل النظام السياسي إلى جزء من العقيدة أو من الدين بصفة عامة، بل نريد بذلك أن تلتزم الأمة حكامًا ومحكومين بالقيم والمقاصد الإسلامية والتي منها التوحيد وسائر مستويات القيم الأخرى المرتبطة بها كالعدل والمساواة والحرية والوفاء بالعهد الإلهي[٣].

---

[١] [الأنبياء: ٩٢].

[٢] يُنْظَر: «منظومة القيم العليا التوحيد والتزكية والعمران»، (ص: ٦٤).

[٣] يُنْظَر: «التوحيد والتزكية والعمران»، (ص: ٨٥).



إن قيمة التوحيد المتمثلة في **«لا إله إلا الله»** تعني فيما تعنيه أن الهداية الإلهية صالحة للناس جميعًا، وأن الأمة هي قاعدة التجمع الإنساني، وأن مفهوم الأمة مفهوم ديني إسلامي يختلف عن المفاهيم الدينية غير الإسلامية؛ فهو يعطي الحق لأتباع الأديان الأخرى أن يجتمعوا على أساس دينهم، ويحث على ذلك ويستوعبهم في مجتمع المسلمين، مع الاحتفاظ بكياناتهم الدينية الخاصة بهم، ويبقى دستور المجتمع المسلم يحمل رسالة مفتوحة إلى العالم كله للدخول في الإسلام أو الدخول في أمان الإسلام، مع التفاعل البناء والتعاون المثمر في حماية الحقوق وتوفير الرعاية والتمتع بالسلام، وهكذا فإن هذه الخاصية العالمية لقيمة التوحيد، والنظام المفتوح على العالم هو دعوة مفتوحة إلى السلام، ولا تضمن بالضرورة دخول الناس في الإسلام، وإنما تضمن علاقات سلام تزول معها نوايا الحرب، وتتفق فيها حرية الإنسان وكرامته في التفاهم والتجاوز والتعامل والتعاون مع مواطني المجتمع المسلم في كل مجالات الحياة [١].

المطلب الثالث: تجليات التوحيد في النظام الاجتماعي، الأسرة والأمة

تشتمل تعاليم الإسلام على ما يختص بمناحي الحياة كلها؛ لأن الدين في تعريف الإسلام هو صناعة الحياة وتحريك التاريخ في الزمان والمكان، ومهمته الخلافة التي أراد الله للإنسان أن يتولاها، وتختص في جزئها الأكبر بإقامة الحياة الاجتماعية، وتنظيم المعاملات فيها وفق أحكام الله، وهذه لا تقتصر على شؤون الأسرة فقط، وإنما تتناول أحكام التعامل المالي والاقتصادي وشؤون الدولة والإدارة الحكومية، وأحكام القضاء وقوانين تحقيق

---

[١] يُنْظَر: «منظومة القيم العليا التوحيد والتزكية والعمران»، (ص: ٦٤).

العدل، وكلها أحكام تتعلق بالواقع الاجتماعي، أما قضايا العبادات والأخلاق الفردية، فلا تشكل إلا الجزء اليسير من تشريعات الإسلام، فضلًا عن أن كثيرًا من أحكام العبادات هي اجتماعية بطبيعتها مثل الحج والزكاة، وبعضها اجتماعية في تأثيرها مثل الصلاة والصوم.

إن تجليات التوحيد في حياة المجتمع تتمثل في أن أوامر الله الواحد إنما تتحقق في حياة الأمة؛ فالأمة تحتكم إلى قانون إلهي يعبر عن جوهر الحقيقة الدينية، وهو مصدر السلطة في حياة الأمة[١].

كما أن الهدي الأخلاقي الديني الذي جاء به الإسلام يستهدف صياغة الأمانة التي يحملها الإنسان بوصفها قيمة أخلاقية لحياة الإنسان في هذا العالم، ولا يستطيع الإنسان القيام بهذه الأمانة إلا بوجود نظام اجتماعي، والقيمة الأخلاقية هي روح العلاقات في هذا النظام؛ فمن هذه العلاقات على سبيل المثال: التعاون والتكافل في توفير الحاجات الأساسية من خلال البيع والشراء. هنا، يأتي دور الأمانة والصدق والوفاء في التعامل بين الناس؛ فالمجتمع هو شرط لا بد منه لوجود هذه القيم الأخلاقية.

لكن جوهر القيم مرتبط بمصدرها الوحيد، وهو الله سبحانه وتعالى؛ فالتوحيد يميّز تمييزًا حاسمًا بين الله الواحد وجميع المخلوقات، وكما أن التوحيد يعني وحدانية الله سبحانه، ومن ثم وحدة المرجعية في الحقيقة والقيم، فإن التوحيد يفترض في الوقت نفسه أن القيمة هي قيمة لجميع البشر المخلوقين بلا تمييز، وكما أن سنن الله في الكون تنطبق على جميع المخلوقات، حتى تنتظم حركة الكون، فإن إرادة الله تشمل جميع البشر؛ فلا

---

[١] يُنْظَر: «المرجع السابق»، (ص:٥٤) باختصار.

يعلو فرد على الآخرين بحكم النسب أو الأصل، ولا تتحكم فئة في غيرها، وهكذا يكون المجتمع التوحيدي الذي يبنيه الإسلام لا يقوم على فضيلة فرد أو أسرة أو قبيلة أو شعب، أو جنس، وحتى لو بدأت حركة بناء المجتمع في لحظة معينة في مكان معين، على أيدي فئة بعينها، فإن الحركة لا بد أن تتوجه إلى البشر جميعًا؛ فالمجتمع الإسلامي وسيلة، إذا لم يشمل العالم الإسلامي كله، وهو غاية، عندما يتحقق هذا الشمول، وأي حصر لطبيعة المجتمع البشري في «شعب مختار» أو «دم نبيل» أو «عرق خاص» يتناقض مع مقتضيات التوحيد[١].

ولا شك أن النظام الاجتماعي الإسلامي الذي يقوم على التوحيد يعتمد الأسرة وحدة بناء المجتمع، وروح العلاقات الأسرية ومتانتها، وفي هذا يختلف النظام الاجتماعي الإسلامي عن أي نظام آخر؛ فقد أدت النظرية الشيوعية التي حاولت إلغاء دور الأسرة إلى إضعاف روابط العلاقات الأسرية، وأدت الروح الفردية في الغرب إلى انفراط عقد الأسرة وإيصالها إلى مرحلة الاحتضار، وأسهمت النظريات الأنثربولوجية[٢] التي تنظر إلى العلاقات بين البشر في ضوء ما هو قائم بين الحيوانات إلى غسل أدمغة الناس بعدم وجود فوارق مهمة، وإلى إلغاء الدور المكرم للأسرة، وبذلك

---

[١] يُنْظَر: «منظومة القيم العليا التوحيد والتزكية والعمران»، (ص: ٥٥) باختصار.

[٢] انثروبولوجيا (Anthropology;): علم الإنسان وتطوره وهو علم يدرس أصل النوع الإنساني والظواهر المتعلقة به. ينظر: «المعجم العلمي للمعتقدات الدينية» سعد الفيشاوي، (ص: ٢٧)، ط: الهيئة العامة للكتاب ٢٠٠٧م.



أصبحت الحضارة الإنسانية مهددة بالسقوط؛ لأن الحضارة والأسرة حقيقتان مرتبطتان[١].

المطلب الرابع: تجليات التوحيد في سائر مناحي الحياة

إن التوحيد إذا خالطت بشاشته القلب، واستيقنه الضمير، واستنار به العقل، واستضاء به الوجدان، انعكس على سائر جوانب الحياة الفردية والأسرية والاجتماعية، والتوحيد يمثل آنذاك منطلق العلاج الشافي لكل أمراض ومشكلات وأزمات الحياة والأحياء، بل والأِشياء، إنه آنذاك ينعكس على الفكر فيقيمه، وعلى التصور فينقيه، وعلى الاعتقاد فيصححه ويطهره، وعلى الوجدان فيحرره، وعلى السلوك فيعدله، وعلى الخُلق فيحسنه، وعلى الحياة فيجعلها حياة طيبة، وعلى نظم الحياة فيجعلها صالحة قائمة على الهدى والحق والعدل والأمانة، وتساوى الخليقة ووحدتها، ووحدة الحقيقة ومناهجها[٢].

والتوحيد إن عجز عن تحقيق ذلك كله أو شيء منه، فإنه يحتاج إلى مراجعة شاملة؛ لوجود تلازم بينه وبين آثاره؛ إذ إن عدم ظهور آثاره يشير إلى أن هناك خللًا في التحقق بحقيقته، أو أن هناك شوائب قد شابته فحالت دون انعكاسه على ما ذكرنا[٣]، قال تعالى: **{وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ}**[٤]، وقال تعالى: **{الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ**

---

[١] يُنْظَر: «منظومة القيم العليا التوحيد والتزكية والعمران»، (ص: ٥٦).

[٢] يُنْظَر: «مقدمة في السؤال اللاهوتي الجديد» عبد الجبار الرفاعي، (ص: ٢٣)، ط: دار الهادي- بيروت، ط: الثانية ١٤٢٩هـ- ٢٠٠٨م.

[٣] يُنْظَر: «التوحيد والتزكية والعمران»، (ص: ١٧).

[٤] [يوسف: ١٠٦].

الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ}[١]، وقال تعالى: {**فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا**}[٢].

القرآن الكريم يربط التوحيد بجميع مناحي الحياة؛ بحيث يصطبغ تفكير الإنسان وسلوكه الحياتي اليومي بالتوحيد، ويكون التوحيد صبغة لسائر مرافق حياة الإنسان {صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ}[٣]، بمعنى أن تفكير الإنسان وفعالياته وسلوكه اليومي يجب أن يصطبغ ويتلون بالتوحيد، حتى تصير كل قضية علمية كانت أو عملية، تنطلق منه؛ فبالتحليل ترجع كل مسألة وقضية إلى التوحيد، وبالتركيب يصيران شيئًا واحدًا، لا مجال للتجزئة ولا للتفريق بينهما. لقد كانت العقيدة التي يستوحيها المسلم من القرآن طاقة تُنْتِج الإيمان، وتُوَجِّه؛ لأنها تجعل الإيمان معطى عمليًّا فاعلًا، مفعمًا بالحيوية، عبر دمج النظر بالعمل، وعدم الفصل بين الإيمان بوصفه حالة وجدانية والسلوك الإنساني، الذي يتجلى من خلاله المحتوى الاجتماعي للتوحيد.. غير أن علم الكلام الذي تمت صياغته لاحقًا بالاستناد إلى أدوات المنطق الأرسطي لم يقتصر على تعميق البعد النظري في العقيدة، بل تجاوزه إلى تفريغ التوحيد من مضمونه العملي، والتعامل مع المعتقدات بوصفها مفاهيم ذهنية مجرَّدة لا صلة لها بالواقع[٤].

---

(١) [الأنعام: ٨٢].

(٢) [الكهف: ١١٠].

(٣) [البقرة: ١٣٨].

(٤) يُنْظَر: «مقدمة في السؤال اللاهوتي الجديد» عبد الجبار الرفاعي، (ص: ٢٣).

ومع أن المسلم أصر على التمسك بالإيمان بالله وبوحدانيته، ولم يتخلَّ عن إيمانه، فإن هذا الإيمان فقد أثره وإشعاعه الاجتماعي، وتجرَّد من فاعليته، فلم يتجسَّد في نزوع للوحدة والمؤاخاة في حياة المجتمع المسلم، باعتبار أن عقيدة التوحيد توحّد المجتمع في التصورات والغايات والشعور، وأنماط السلوك، وإنما تعرض المجتمع إلى انقسامات شتى، وأمسى جماعاتٍ وفرقًا متعدِّدة، أهدرت الكثير من قدرات الأمة في سجالات أفضت إلى مواقف عدائية، وأقحمت الأمة في حروب أهلية في بعض الفترات، وهكذا يضمحل دور العقيدة، فلا تحول دون اقتتال الأمة الواحدة، ولا تكون منبعًا للوحدة حين تفرغ من محتواها الاجتماعي[١].

المطلب الخامس: التوحيد ينفي الاستبداد

إن إفراد الله تعالى بالوحدانية والربوبية هو الذي يجعل الإيمان بالله الروح السارية والقوة الموجهة لكل أعمال الإنسان؛ فالتوحيد الإسلامي ليس كلمة ينطق بها اللسان، ولا هو مجرد تصور فلسفي لعلاقة الإنسان بالخالق، وإنما هو ثورة تحريرية تعتق الإنسان من العبودية لكل الأغيار[٢].

إن السند الأول والأعظم والدائم الذي يعصم الإنسان من الضعف والتسليم لقوى الاستبداد المحيطة به، هو الإيمان بالله الواحد، قوة فوق كل القوى، بل خالقة وقاهرة لكل ما في الكون من قوى، وبهذا المعنى يصبح التوحيد، وتصبح شهادة "**لا إله إلا الله**" ونداء "**الله أكبر**" الطاقة الخلاقة

---

[١] يُنْظَر: «مقدمة في السؤال اللاهوتي الجديد»، (صـ: ٢٣).

[٢] يُنْظَر: «معالم المنهج الإسلامي» أ.د: محمد عمارة، (صـ: ٣٦)، ط: دار التوزيع والنشر الإسلامية– القاهرة، ط: الأولى: ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م.

والدائمة في تحرير الإنسان وإطلاق طاقاته الفاعلة من أسر الأغيار والأنداد.

إفراد الله تعالى بالربوبية يعني تحرير الإنسان من العبودية لغير الله من الطواغيت والأشياء الأغيار والقوى المادية والأساطير والأوهام؛ ففيه جوهر التحرير، وقمة التحريرالذي يفك كل قيود الإنسان عندما يخص بعبوديته الذات الإلهية، التي جلت- في التصور- عن المادة واستهدفت شرائعها- أيضًا- تحرير هذا الإنسان وإسقاط الإصر والأغلال التي كانت تقيد عقله وتعجز خطاه[١].

هكذا يصبح إفراد الله سبحانه بالألوهية طاقة خلاقة دائمة الفعل والتأثير، تدفع الأمة الإسلامية وتعين أبناءها، إذا هم وعوا حقيقتها، وأزالوا الغبش عن تصوراتهم لها، تدفعهم وتعينهم على مواجهة هيمنة القوى الخارجية التي تفرض على ديار الإسلام وأمته الاستلاب الفكري والنهب الاقتصادي والإلحاق العسكري والتبعية السياسية، وعلى مواجهة الطواغيت الذين يتزاحمون على مسرح الحياة الإسلامية طالبين أن يُعبدوا مع الله أو من دون الله، طواغيت الاستبداد السياسي، والاستبداد المالي، وطواغيت العصبية الظالمة، قَبَلية ووطنية وقومية وعنصرية[٢].

وفي ضوء ما سبق نجد أن التصور الإسلامي للوحدانية في الإسلام تصور قائم على حرية الإنسان –حرية الرأي، حرية الفكر، حرية العقيدة، وبهذا ينفى التوحيد كقيمة الاستبداد، أما ما حدث ويحدث من وقائع استبداد

---

[١] يُنْظَر: «معالم المنهج الإسلامي»، (صـ: ٣٣).

[٢] يُنْظَر: «معالم المنهج الإسلامي»، (صـ: ٣٥).

فهي خارج نطاق التوحيد، نسي هذا المستبد عن عمد أو جهل قمية التوحيد، وأن القاهر والجبار هو الله سبحانه وتعالى.

المطلب السادس: رؤية التوحيد لعالمي الغيب والشهادة

إن التصور الإسلامي التوحيدي علّم الإنسان أن العالم قسمان: (غيب وشهادة)، وكثيرًا ما ورد القرآن الكريم بذكر الاثنين معًا (الغيب والشهادة)، وفي مجال الإيمان كثيرًا ما يقترن الغيب بالدعوة إلى الإيمان به، أو الثناء على المؤمنين به، قال تعالى: **{الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ}**(١)، واعتبر في بعض الآيات ركنًا من أركان الإيمان وبيّنه رسول الله- صلى الله عليه وسلم- بوصفه ركنًا أساسيًّا من أركانه، والغيب غيبان:

غيب مطلق: وهو ما استأثر الله- عز وجل- بعلمه، قال تعالى: **{وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ }**(٢)، وامتدح الله تعالى أولئك الذين يؤمنون بالغيب في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: **{الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ}**(٣).

وغيب نسبي: وهو ما خفي أو غاب عن حواسنا لبعده، أو لسبب آخر، وهو غيب نسبيٌّ، قد يكتشف مع الزمن، وإلى هذا يشير قوله تعالى: **{تِلْكَ**

---

(١) [البقرة: ٣].

(٢) [الأنعام: ٥٩].

(٣) [البقرة: ٣].

مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ}[١]، والله عز وجل وحده الموصوف بأنه **{عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ}**[٢].

والتوحيد يستدعي الإيمان بالغيب؛ فالله تبارك وتعالى غيب مطلق وعنه صدر الغيب، والإيمان بالغيب هو الذي يساعد الإنسان في فهم حدوده ودوره المرسوم له في هذا الكون، وموقعه في منظومة الخلق فيدرك حقيقة العبودية وشرفها فيقبل عليها طائعًا مختارًا، ويدرك في الوقت ذاته عظمة الألوهية وقدسيتها وتعاليها وتنزهها، وذلك يحميه من أن ينسبها إلى أي أحد غير مستحقها الواحد الأحد سبحانه وتعالى.

ويستدعي التوحيد فيما يستدعيه الإيمان بالمخلوقات الغيبيَّة؛ فهي جزء من عالم الغيب، وهي أصناف ثلاثة: **الملائكة، والجن، والشياطين**[٣].

من خلال العرض السابق، يظهر لنا أن التوحيد إذن هو نظام حياة مرتبط بالله الواحد الأحد، يشمل هذا النظام الإلهي المتقن الفرد والأسرة والمجتمع، وجميع الكيانات البشرية على ظهر هذه المعمورة، فإن صلاح حال الفرد في سره وعلنه، وباطنه وظاهره مرهون بإقامة علاقة صالحة مع الله رب العالمين، تقوم على الحب له سبحانه، والخوف منه عز وجل، فيمتثل ما أمره الله به، ويجتنب ما نهاه الله عنه، ويحل ما أحله الله، ويحرِّم ما حرَّم الله، ويرضى بما قسم الله له وقدَّر وكتب عليه من بلاءات الحياة، ويطمئن ويثق أن الله تعالى على كل شيء قدير، وأنه أحاط بكل شيء

---

[١] [(هود: ٤٩].

[٢] [الحشر: ٢٢].

[٣] يُنْظَر: «المنهجية الإسلامية»، (١/ ٣٦٦).

علمًا، فهو الإله العليم القدير الذي شرع له من الدين ما فيه سعادته في الدنيا والآخرة، قال تعالى آمرًا عبد ونبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم، والمؤمنين من أمته: **{قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (*) قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (*) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (*) قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (*) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ}**[١].

---

[١] [الأنعام: ١٦١ – ١٦٥].

الخاتمة

الحمد لله حتى يبلغ الحمد منتهاه وأصلي وأسلم على خاتم النبيين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، فإن القلم وإن صار بمداده حول الموضوع، فإنه يعجز عن أن يوفيه حقه، فهذا ما ارتآه العقل القاصر، وأسال الله أن أكون قد أسهمت بعض الشيء في إيضاح هذا الموضوع وبيانه، كما أسأله سبحانه أن يستعملنا ولا يستبدلنا، وبعد...

وأخيرًا، فعلى مدار رحلتي مع البحث، كان من أهم النتائج التي توصلت إليها:

النتائج التي يمكن استخلاصها:

أولًا: التوحيد رأس وغاية النص القرآني، ومن أجله كانت بعثة الرسل.

ثانيًا: على الرغم من الأثر السيئ للجدل الكلامي، فإنه ينبغي ألا نقلل من شأنه؛ فهو وإن كان له خطره على العقيدة، لكنه يعبر عن عبقرية العقل المسلم في الحجاج والاستدلال.

ثالثًا: فاعلية عقيدة التوحيد مرتبطة بمنهج القرآن الكريم في عرضها.

التوصيات

أوصي زملائي من الباحثين أن ينقبوا عن العقائد الإسلامية واحدة تلو الأخرى، ويعرضوها من خلال القرآن الكريم، وكذا تجلياتها للناس، وهذا هو **الجانب النظري.**

أما **الجانب العملي**، فهو عرض تطبيقات الصحابة بوصفها أنموذجًا عمليًّا للعقائد، وذلك من خلال القرآن الكريم وكذلك السنة النبوية ووقائعهما؛ فهما يذخران بالشيء الكثير، وهذا مما يساعد على غرس الإيمان في القلب.

هذا وصل اللهم وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.





المصادر والمراجع

القرآن الكريم

١) «آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي»، جمع وتقديم، د: أحمد طالب الإبراهيمي، ط: دار الغرب الإسلامي، ط: الأولى، ١٩٩٧م.

٢) «إحياء علوم الدين» تأليف: أبي حامد الغزالي، ط: دار المعرفة – بيروت، بدون.

٣) «الإسلام والعقل»، أ د: عبد الحليم محمود، ط: دار المعارف بالقاهرة، ط: الثالثه ١٩٨٨م.

٤) «الإسلام وحاجة الإنسانية إليه»، لمحمد يوسف موسى ط: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٩٩٥م.

٥) «الإلحاد للمبتدئين، دليلك المختصر في الحوار بين الإيمان والإلحاد»، أ د: هشام عزمي، دار الكاتب للنشر والتوزيع. دون

٦) «البحر المحيط في التفسير» تأليف: أبي حيان محمد بن يوسف بن حيان، تحقيق: صدقي محمد جميل، ط: دار الفكر – بيروت، ط: ١٤٢٠ هـ.

٧) «التجديد في دراسة علم التوحيد»، محمد بنيعيش، ط: دار الكتب العلمية- بيروت، لبنان، ط: الأولى- ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م.

٨) «التحرير والتنوير» للطاهر بن عاشور، ط: الدار التونسية للنشر- تونس، ١٩٨٤م.

٩) «التفسير الكبير» الإمام فخر الدين الرازي، ط: دار إحياء التراث العربي- بيروت، ط: الثالثة- ١٤٢٠هـ.

١٠) «التوحيد رؤية للكون و إبستمولوجيا بناء الوعي المتجاوز عند إسماعيل الفاروقي» الحاج بن أحمنة دواق، مجلة إسلامية المعرفة، مجلة فصلية محكمة يصدرها المعهد العالمي للفكر الإسلامي، عدد (٧٤)، السنة التاسعة، ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م.



١١) «التوحيد والتزكية والعمران: محاولات في الكشف عن القيم والمقاصد القرآنية الحاكمة» أ د: طه جابر العلو اني، ط: دار الهادي- بيروت ٢٠٠٣م.

١٢) «العقيدة الإسلامية في مواجهة التيارات الإلحادية» أ د: فرج الله عبد الله الباري، ط: دار الأفاق العربية، دون.

١٣) «الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل» للزمخشري، ط: دار الكتاب العربي- بيروت، ط: الثالثة ١٤٠٧هـ..

١٤) «المجددون في الإسلام»، أ.د/ أمين الخولي، ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة: ١٩٩٢م.

١٥) «المعجم العلمي للمعتقدات الدينية» سعد الفيشاوي، ط: الهيئة العامة للكتاب ٢٠٠٧م.

١٦) «المفردات في غريب القرآن» تأليف أبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، الناشر: دار القلم، الدار الشامية- دمشق بيروت، ط: الأولى ١٤١٢هـ.

١٧) «المفردات في غريب القرآن» تأليف أبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، الناشر: دار القلم، الدار الشامية- دمشق بيروت، ط: الأولى ١٤١٢هـ.

١٨) «المفيد في مهمات التوحيد» د. عبد القادر بن محمد عطا صوفي، الناشر: دار الاعلام، ط: الأولى ١٤٢٢هـ.

١٩) «النهاية في غريب الحديث والأثر» تأليف: مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن محمد ابن عبد الكريم الشيباني الجزري ابن الأثير، تحقيق: طاهر أحمد الزاوى- محمود محمد الطناحي، الناشر: المكتبة العلمية- بيروت، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

٢٠) «تأويل مختلف الحديث» لابن قتيبة، ط: المكتب الإسلامي ومؤسسة الإشراق، ط: الثانية ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.

٢١) «تجديد الفكر الإِسلامي» أ.د: محسن عبد الحميد، ط: المعهد العالمي للفكر الإِسلامي، ط: الأولى ١٤١٦هـ- ١٩٩٦م.

٢٢) «تجديد الفكر الديني في الإسلام»، لمحمد إقبال: لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، دون.

٢٣) «تهذيب اللغة تأليف: محمد بن أحمد بن الأزهري، تحقيق: محمد عوض مرعب، ط: دار إحياء التراث العربي– بيروت، ط: الأولى، ٢٠٠١م.

٢٤) «تهذيب اللغة» تأليف: محمد بن أحمد بن الأزهري، تحقيق: محمد عوض مرعب، ط: دار إحياء التراث العربي– بيروت، ط: الأولى، ٢٠٠١م.

٢٥) «جمالية الدين» فريد الأنصاي، ط: دار السلام- القاهرة، ط: الثامنة ١٤٤١هـ-٢٠٢٠م.

٢٦) «خطبة الجمعه والعيد بين التقليد والتجديد» أ. د: بكر زكي إبراهيم عوض، ، كتاب جامعي.

٢٧) «ذم الكلام وأهله»، للهروي، تحقيق: عبد الرحمن الشبل، مكتبة العلوم والحكم- المدينة المنورة- السعودية، ط: الأولى ١٩٩٨م.

٢٨) «ذم الكلام وأهله»، للهروي، تحقيق: عبد الرحمن الشبل، مكتبة العلوم والحكم- المدينة المنورة- السعودية، ط: الأولى ١٩٩٨م.

٢٩) «رسالة التوحيد» الشيخ محمد عبده، تقديم أ د: محمد عمارة، ط: دار الشروق –بيروت، ط الأولى ١٤١٤هـ- ١٩٩٤م.

٣٠) «رسالة التوحيد» الشيخ محمد عبده، تقديم أ د: محمد عمارة، ط: دار الشروق –بيروت، ط الأولى ١٤١٤هـ- ١٩٩٤م.

٣١) «شرح الطحاوية»، لابن أبي العز الحنفي، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار التراث- القاهرة، دون.

٣٢) «شرح العقائد النسفية» للعلام سعد الدين التفتازاني، تحقيق، د: أحمد حجازي السقا، ط: مكتبة الكليات الأزهرية، ط: الأولى ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م.

٣٣) «شرح المقاصد» سعد الدين التفتازاني، ط: بيروت دار الكتب العلمية، ط: الأولى- ٢٠٠١م.

٣٤) «صون المنطق والكلام عن فني المنطق والكلام»، للإمام جلال الدين السيوطي، تحقيق: الدكتور علي سامي النشار، والسيدة سعاد علي عبد الرازق، تقديم: الشيخ عبد الحليم محمود، ط: مجمع البحوث الإسلامية، سلسلة إحياء التراث الإسلامي.

٣٥) «صون المنطق والكلام عن فني المنطق والكلام»، للإمام جلال الدين السيوطي، تحقيق: الدكتور علي سامي النشار، والسيدة سعاد علي عبد الرازق، تقديم: الشيخ عبد الحليم محمود، ط: مجمع البحوث الإسلامية، سلسلة إحياء التراث الإسلامي.

٣٦) «طبقات الشافعية الكبرى»، لتاج الدين السبكي، تحقيق، د: محمود محمد الطناحي، د: عبد الفتاح محمد الحلو، ط: هجر للطباعة والنشر والتوزيع، ط: الثانية، ١٤١٣هـ.

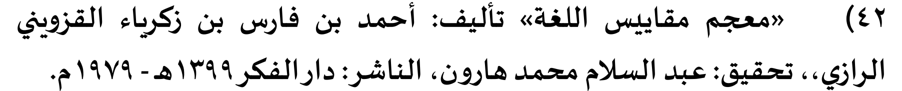
٣٧) «علل وأدوية» الشيخ محمد الغزالى، ط: دار الكتب الإسلامية- القاهرة، ط: الثانية ١٤٠٥هـ- ١٩٨٧م.

٣٨) «فتح القدير»، تأليف: محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، ط: دار ابن كثير، دار الكلم الطيب - دمشق، بيروت، ط: الأولى ١٤١٤ هـ.

٣٩) «لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرة المضية في عقد الفرقة المرضية» تأليف: أبي العون محمد بن أحمد بن سالم السفاريني الحنبلي، ط: مؤسسة الخافقين ومكتبتها– دمشق، ط: الثانية- ١٤٠٢هـ- ١٩٨٢م.

٤٠) «مالك .. حياته وعصره .. وآراؤه وفقهه»، للشيخ محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي- القاهرة، بدون.

٤١) «معالم المنهج الإسلامي» أ.د: محمد عمارة، ط: دار التوزيع والنشر الإسلامية- القاهرة، ط: الأولى: ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م.



٤٢) «معجم مقاييس اللغة» تأليف: أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي،، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: دار الفكر ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

٤٣) «مفتاح السعادة ومصباح السيادة»، لطاش كبرى زادة:، ط: دار الكتب العلمية بيروت، بدون.

٤٤) «مقدمة ابن خلدون»- تأليف: عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، تحقيق: علي عبد الواحد وافي، ط: مكتبة الأسرة، ط: الثانية ٢٠٠٦م.

٤٥) «مقدمة في السؤال اللاهوتي الجديد» عبد الجبار الرفاعي، ط: دار الهادي- بيروت، ط: الثانية ١٤٢٩هـ- ٢٠٠٨م.

٤٦) «مناقب الإمام أحمد» لابن الجوزي، ط: دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط: الأولى ١٩٧٣م.

٤٧) «مناقب الشافعي»، للبيهقي، تحقيق: السيد صقر، دار التراث- القاهرة، ١٩٧٠م.

٤٨) «مناهج الأدلة»، لابن رشد، تقديم: محمود سعد، ط: مكتبة الأنجلو المصرية: ١٩٦٤م.

٤٩) «منظومة القيم العليا التوحيد والتزكية والعمران»، فتحي حسن ملكاوي، ط: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط: الأولى ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م.

٥٠) «منهج القرآن الكريم في الدعوة إلى التوحيد» أحمد محمد رحومة، منشورات جميعة الدعوة الإسلامية العالمية- طرابس- ليبيا، دون.

٥١) «نشأة الفكر الفلسفي الإسلامي»- حسام الآلوسي، ط: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط: الأولى- ١٩٨٠م.

٥٢) «نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام»- علي سامي النشار، ط: دار المعارف، ط: التاسعة- دون.

٥٣) «نقد الفقهاء لعلم الكلام بين حراسة العقيدة وحركة التاريخ»، أد: أحمد محمد سالم، ط: رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط: الأولى ٢٠٠٨م.

٥٤) «وجهة العالم الإسلامي»، لمالك بن نبي، دار الفكر سوريا، ١٩٨٦م.

٥٥) المنهجية الإسلامية، أ.د: أحمد فؤاد باشا، أ.د: حسن الشافعي، مجموعة من المؤلفين، ط: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط: الأولى ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م.

فهرست المحتويات